مريم العجمي



رواية

مُنتصف الشمس

��ma;��~+�cx"w|¢Y�k"Q?��2�#ö��Ld?5�TN麋��D�� ⍰Q��|
}qX*D����Q��F-Z⍰ygk⍰K⍰s$
⍰4⍰+=⍰⍰X)⍰⍰⍰⍰˚⍰I⍰⍰:A⍰Ed⍰R0s⍰⍰*&⍰⍰⍰f⍰⍰⍰⍰ ⍰⍰⍰⍰?⍰*⍰⍰
⍰0⍰t⍰⍰3⍰=⍰⍰A3-nR*ںuo⍰g⍰==⍰⍰+zY⍰⍰a⍰⍰⍰/
⍰3⍰e⍰⍰⍰R⍰=⍰W⍰⍰d⍰m⍰]⍰:⍰⍰⍰4⍰ *⍰⍰⍰⍰gLft⍰|⍰vrI⍰⍰
⍰Q⍰z<0⍰x3⍰⍰ے⍰oL.⍰⍰⍰4⍰⍰†z⍰⍰⍰?t⍰⍰⍰⍰p}⍰Y⍰?
⍰:⍰Z⍰B&⍰⍰⍰$⍰7:#B⍰I⍰Y
vs∀7⍰⍰a⍰⍰cuh[JF'⍰R$⍰8⍰⍰jo⍰⍰⍰⍰Mp⍰oW|B⍰⍰

منتصف الشمس

مريم العجمي

الطبعة الأولـى : 2025

تصميم الغلاف : أحمد الصباغ

تدقـيق لغـوي : شركة المحرر

إخـراج فنـــي : يوسف الفرماوي

رقـــم الإيـداع : 23537 / 2024

الترقيم الدولي I.S.B.N: 978-977-8842-06-7

جميع الحقوق محفوظة ©

لا يسمح بإعادة نشر أو نسخ أو تصوير أي جزء من هذا الكتاب، ولا إصداره بأي شكل من الأشكال ورقيًا أو إلكترونيًا أو صوتيًا إلا بإذن خطي من الناشر.

المُحرِّر

info@almoharer.com

01013146678

01124549848

daralmoharrer

منتصف الشمس

رواية

مريم العجمي

المُحرِّر

إهداء

إلى أمي

مها محمد عبد السلام الفضالي

إلى الرِّوائية

منصورة عز الدين..

حلمتُ أن غرابًا يأكل من قلب عمي عامر..

I

(عيار ناري لسلاح خفيف روسيّ الصنع لا يحمله إلا جنود المشاة، هل قُتل عمك بيدٍ مصرية؟)

ترك أحد المتابعين هذا التعليق على الصورة التي نشرتها منذ ساعتين تقريبًا للرصاصة التي قتلت عمي عامر بالحرب. من الدقيقة الأولى والتفاعل مع الصورة غير مسبوق، كمّ هائل من الإعجابات والتعليقات والمشاركات لم تُمنح لصورة التقطتها من قبل؛ أوقفني هذا التعليق من بين مئات التعليقات كلها دعوات بالرحمة للشهيد المصري ولزمن الرجال. أعيد قراءة الجملة وأنظر إلى الصورة ثانية، أتدبر الكلمات على مهل، أعيد ترتيبها.

عمي كان في سلاح المشاة أيام حرب أكتوبر ١٩٧٣، عمي الشهيد؛ نعم مصري!

كيف يُقتل برصاص مصري؟

أعدتُ السؤال، سؤال يتبع سؤالًا ولا إجابة، أي جنون وخرف هذا! غير معقول بالمرة.

سمعتُ صوتَ ضجيج تكسير مفزع وعالٍ، ليس من الرأس، الطرق مرتفع جدًّا، خرجت إلى الشرفة، إنهم الجيران، البيت القديم المتهالك، يقف عامل البناء على السقف يرفع المطرقة المربعة لأعلى بكل عزمه، ينزل بها عليه، أتابع الضربات المتتالية بإيقاعها البطيء الحريص، تُحدث شقوقًا تتضاعف وتتسع إلى أن تسقط الكتلة الخرسانية مفتتة من الأحجار والرمال، يقسّم منطقة العمل إلى مربعاتٍ متجاورة، يفرغ من مربع وينتقل إلى الآخر. تشغلني فكرة الهدم والبناء، أيهما أقرب إليّ، أحتفي بكليهما، أنتبه كليًّا في كل مرة أراقب عملية هدم وبناء متعاقبتين، هذا البيت الذي جاور بيتنا عمري كله لن أراه ثانية، سيغيب، هل أشبع منه قبل أن يفنى؟ أأحفظ تفاصيله بدقة قبل النهاية بقليل؟ تتصاعد الأتربة كدخان إثر كل سقطة حجر. قرب الصوت وارتفاعه يشعرني أن الطرق فوق رأسي مباشرةً، انتهى العامل من تكسير أول مربع، تسقط أشعة الشمس على بلاط الشقة القديمة، منذ متى ولم يرَ الشمس من هذه الزاوية بالتحديد، أرى ألوان الغرفة أوضح، أحتاج توثيق هذه اللقطات، أدخل غرفتي، أفتح درفة الدولاب أخرج الكاميرا من حقيبتها، سأصعد إلى السطح لأتمكن من تسجيل اللقطات بشكلٍ أفضل، أتابع الطُّرقات، أحدد وقت سقوط الحجر، في اللحظة المناسبة ألقط صورة الحجر بين السقف والسقوط معلقةً وأحتفظ بتلك اللحظة النادرة، التعلق بين مستويين، أن يقفز أحدهم وقبل أن يصل إلى الأرض تكون لقطتي، أرمي عملةً معدنية وأمسك بها في صورة، حتى إني تمنيت لو يسقط أحدهم من ارتفاع برج لأشبع تصويرًا، تلك اللقطة شديدة الحرفية والحيوية لا يلتقطها إلا مصوِّر ماهر مثلي، لو أتمكن من التقاط رصاصة وقت انطلاقها قبل أن تصل إلى صدر الهدف!

الرصاصة

رصاصة عمي عامر..

سقط مربعٌ كاملٌ من البناء؛ رجَّ صوت ارتطامه بالأرض مكاني، أخرجتُ الهاتف من جيبي، عاودت قراءة التعليق، تضاعفت الإعجابات بهذا التعليق بجنون بالإضافة إلى عشرات الردود والتي تطالب بكل دقة أن أرد: كيف حصلت على هذه الرصاصة؟

٢

كل القصص الآن لا تحتمل أكثر من تمريرة إصبع على شاشة زجاجية بحجم كف اليد، بمجرد اختفائها نتجاوزها، لتصعد حكاية جديدة بلا نهاية، لا أتوقف عند الحياة والموت، الفرح والحزن، تتجاور كل المعاني فلا تمنح أي معنى حقه.

«سمعتم عن سقوط الطفل من المبنى المقابل؟».

«الخبر نازل على صفحة البلد بالفيس بوك».

***

هذه المرة لم تلحقه أمه وسقط.

استيقظ سكان العمارة على صوت نداء من مدخلها بالأسفل، ضجة مرعبة، تُفتَح الأبواب بحذرٍ لسماع الصوت.

_ في طفل وقع من بلكونة حد في العمارة..

هرع، فزع، دخول إلى الغرف للاطمئنان على الصغار، لحظة لا يمكن تخطيها بالزمن.

بنظرة جانبية للشرفة المشرعة، عرفت سمر أنه ابنها، نزل زوجها مسرعًا ليرى؛ لكنها دخلت تبحث عنه: فوق السرير، ترفع الأغطية وتُخفضها، ترفعها مرة أخرى، تنظر تحت السرير، ترفع المرتبة وتحرك ألواح سريري غرفة الأطفال، تفتح الدولاب تفرغه بعنف، تفتح الأدراج، تجري إلى غرفة الصالون، تنظر تحت الكراسي والكنب، تنادي:

«مصطفى، يا مصطفى رد عليا من أول مرة».

ترمي كل الوسائد والشِّلت على الأرض.. تدخل غرفتها تفتش تحت الأغطية والوسائد، تحت السرير وفوق الدولاب في باطنه، لا أثر للولد، في الحمام والمطبخ بين الأواني والأكواب، في أدراج البطاطس والبصل..

«كم مرة قولتلك متفتحش البلكونة يا مصطفى..».

تنظر إلى الشرفة المفتوحة ولا تقترب، تسمع الضجة بالأسفل، صراخ مفزع، تدريجيًّا يفتر صوتها وهي تنادي مصطفى قرب الشرفة يخفت النداء حتى صار همسًا.

***

يوميًّا يسمع الصغير الهمس، ينادونه ليلعب معهم في البلكونة! حذّرته أمه كثيرًا، يغافلها وهي في المطبخ ويجر كرسيه البلاستيكي الصغير ليطول المزلاج، ينزل ويفتح الشيش، يحضر ألعابه ولا يلعب وحده..

سكوت الصغير لفترة طويلة يثير شكوك الأم حول ما يفعل، تنادي، لا يرد، تبحث عنه في الغرف ولا تجده، ترى الشرفة مفتوحة تجري؛ تجده يلوّح بيديه الصغيرتين، تسأله عما يفعل، يخبرها أنه يلعب مع جده شاهين وقد غادره لأن صوتها يزعجه! هل هو مجرد خيال واسع لطفل، هو لم ير جده شاهين قط؟ تأمره بلمّ ألعابه والدخول، ينَفِّذ الصغير متذمرًا.

***

تسمع سمر أصوات أقدام واضحة صاعدة، تميز صوت زوجها باكيًا ينادي الصغير، ماذا حدث؟ هذا الضوء الباهت المطل من الشرفة يخبرها أنهم بعد الفجر بساعة تقريبًا، من المفترض أن الطفل يغط في نومٍ عميق، تدخل إحدى الجارات عليها، كل الكلام لا معنى له في هذه اللحظات، لكن الذاكرة تنقشه، تبقى تفاصيله كاملة، ملابس الجارة، رائحة عرقها، كلامها عن تحفيظ سيدنا إبراهيم القرآن للطفل في الجنة، ودعواتها بالصبر، تحتضن سمر، تغمّي عينيها وهم يدخلون حاملين الطفل وسط أغطية دامية. تفقد سمر الإحساس بكل شيء، تفتح عيناها وتغلقهما، ترى أمها وأشقاءها، ترى أقاربها وأصدقاءها، تسمع أصواتًا وقرآنًا، تتابع مراحل مرور الشمس على البلكونة، انفراشها في الصالة، يزحف الضوء الأصفر إلى أن يصل لمنتصف السجادة المفروشة ثم ينسحب تدريجيًّا، الأسود غالب على الرؤية، ينتهي المشهد ببيتٍ خالٍ من مصطفى.

٣

أفتح تطبيق الفيسبوك، لم أتلقَّ إشعاراتٍ جديدة بخصوص صورة الرصاصة. هل أمحوها، أغيّر الإعدادات لتصبح للأصدقاء فقط، أم أجعلها فقط لي وأكفي ماجورًا على الخبر؟ فتحت التعليقات، دخلت صفحة صاحب التعليق الأبرز، لا منشورات تدل على شيء بعينه، كلها مشاركات من صفحات أخرى بلا تفاعل يذكر، حتى صورته الشخصية عبارة عن زهور، منشوري هنا مُشارَك بنفس التعليق عليه؛ ومثله منشور الطفل مصطفى.

ماذا يعني أن الرصاصة مصرية؟

عدت إلى صفحتي الشخصية، غيّرتُ إعدادات الصورة لتكون لي أنا فقط.

كيف قُتل عمي عامر بالحرب؟

أنظر إلى ساعة الحائط؛ تأخرت على العمل بالمجلة، أنا المصوّر والصحفي اللامع، صاحب أشهر اللقطات والمقالات النارية (محمد التهامي عزيز) اقتطعت اسم أبي وألصقت اسمي باسم جدي مباشرةً ليضوِّي بالشهرة. كيف فضحت فلانًا في الجرائد وجرست فلانة في المجلات، أكشف قضايا الفساد وأفك غموض الجرائم، تفوز لقطاتي في أشهر المسابقات.

هل أبدو كاذبًا؟

بالفعل أكذب لست إلا إخصائي صحافة في مدرسة إعدادي فترة مسائية، وفي الليل مصوّر بالأفراح.

يرن الهاتف، يظهر اسم أمين: صاحب قاعة الأفراح التي أعمل بها ليلًا. هل سيسأل عن الرصاصة؟ أي رصاصة! هل نسي تعليقه الطويل العريض على الصورة وزمن الرجال والمجد ودروس الحرب! لم يتطرق إلى هذا الحديث، استعجلَ باقي تعديلات صور اليوم الماضي ويؤكد على فرح الليلة وألا أتأخر ككل ليلة وأفوّت الزفة.

شغّلتُ اللاب توب وبدأت عملية إعداد صور فرح الليلة الماضية، كل الوجوه تتشابه في اللقطات، أبدأ لعبة التخمين، من كانت تحب العريس من قريباته، من تكره العروس من صديقاتها، الوجوه مفاتيح لكل الأسرار والصور لا تكذب أبدًا، يخبرني الشبه بأمّي العريس والعروس كذلك الإخوة، ألتقط الحكاية المناسبة لمزاجي وأرتبها كيفما شئت ثم أنساها بالكامل فور الانتهاء من العمل. أحتفظ بصورتين من كل حفل -أفضْل لقطتين لي أنا فقط- أخصص لهما ملفًّا مجمعًا لكل اللقطات التي حرمتُ أصحابها منها دون أن يعرفوا. بجوار ملف النجوم، ألحقت به صورة الليلة الماضية؛ إلى الآن كل ليلة ألتقط صورة للسماء حتى بعد أن حرمتني من أخبارها.

ماذا؟

كيف تخبرني؟

لا تقف النجوم كل ليلة عند المكان ذاته، تُغيّر مساراتها باستمرار، تظهر وتختفي كل هذا لا يحدث عبثًا، حتمًا تود إخباري بشيءٍ ما، فقط أصغي. كنت صغيرًا أصعد كل ليلة إلى سطح البيت أراقبها، معي دفتر أطلقت عليه دفتر النجوم، أدقق في السماء وأرسم النقاط على الصفحة، لا ورقة تتسع للسماء أبدًا؛ لكنني أحاول، أقسّم الصفحة أرباعًا مثلما أفعل باتجاهات السماء ألملم كل ما تراه عيني على الورق، نقاط السماء تلمع في صفحةٍ سوداء، ونقاطي سوداء في صفحةٍ بيضاء، كل هذا لا يهم، الفارق هنا هو موقعها، فكل ليلة تخبرني السماء حكاية عندما أوصل الخطوط وأرى الشكل الذي صنعته.

٤

الحادية عشرة ونصف، الوقت المناسب لارتداء الملابس على عجل، تمشيط شعري والبحث عن الفردة الثانية للجورب البني والتي غالبًا غير موجودة على سطح كوكب الأرض. يمر الوقت وأنا أبحث عن فردتين متشابهتين، أرتدي أي فردتين لهما نفس اللون ولا يهم الباقي، أخرج مسرعًا أرتدي الحذاء الرياضي على السلم وأربطه أمام المنزل، أوسّع خطواتي وأنا أردد كلمات مدير المدرسة، عن وجوب انضباط أخصائي الصحافة في العمل لأنه أساس الطابور فكيف يأتي متأخرًا، ثم إن الدراسة فترة مسائية: أمامك ما يكفي من الوقت يا محترم.

أكاد أحفظ نقلات صوته ووقفاته، متى يتكئ على الحروف ومتى يحررها. بالكاد أصل قبل أن يبدأ مدرس الألعاب بتدوير الطابور، أشاور إلى موَظفة دفتر الحضور والانصراف لتكتب اسمي منفردًا في الخانة دون التهامي ولا عزيز.

تقف الشمس فوق رؤوسنا في الملعب في منتصف السماء. اعتدتُ النظر إليها مباشرة أفقد الرؤية مؤقتًا حين أنقل بصري إلى الأشياء بعدها: تترك أثرًا مدورًا أسود يُفقد كل شيء حقيقته.

أتسحب إلى أرض الطابور كأني وصلت منذ زمن، حين تلمحني فتيات أسرة الصحافة يتبعنني، أرتب أدوار الفتيات على عجلٍ: حديث، حكمة، كلمة، حوار، أسئلة، أخبار، وفي البداية القرآن وغالبًا ما يكون القارئ صبيًّا، لا يشغل نفسه في البحث عني هو يعرف ميعاده ويقوم بدوره. لا تتعبني سوى الفتيات وغيرتهن: يحصين الكلمات على بعضهن ويسألن لمَ فلانة تقول أكثر؟ لمْ أقدم البرنامج الإذاعيّ منذ يومين؟ أنا أفضل فتاة تقرأ. لا تفرغ مبرراتهن أبدًا وكلهن على صواب.

فور أن ينتهي البرنامج، وقبل أن أعيد الميكروفونات إلى غرفتي؛ أفكر في فقرات الغد، يوم اللغة العربية، فرصة للحديث مع «الأبلة» منى، أصغر المدرسات سنًّا، إذا ما ارتدت اللون الكحلي لا يمكنني تفريقها عن الطالباتِ. جادة زيادة عن اللزوم، تحمل عصا صغيرة يمكنها دسها في حقيبة يدها مع الدفاتر والكتب، إذا مررت بفصلها في أي وقت لا تسمع نفسًا للطلاب بنين كانوا أو بنات.

أعرف من جدول الحصص الفصول الخاصة بها: أطلب من الطالبات برنامجًا خاصًّا باللغة العربية والاستعانة بمدرس الفصل. عرفت أيضًا عن طريق الثرثرة مع الطلاب أنها تحب القراءة وتحرِّضهم عليها، تذهب خصيصًا كل عام إلى معرض الكتاب بالقاهرة لتشتري المزيد من الكتب. تحرص في بداية شرحها على أبيات الشعر، تدرب الطالبات كل عام وتعدهن لمسابقة الإلقاء الشعري، وتحصد مراكز متقدمة على مستوى المحافظة وأحيانًا تصعد إلى المستوى الجمهوري.

خلسة أدخل صفحتها الشخصية على الفيس بوك، أغلب منشوراتها مقتبسات من كتب تقرأها، لكن تخصها بشكلٍ ما، تخص وحدتها وعزلتها المختارة في المدرسة وغالبًا في البيت أيضًا، تخفي وجهها خلف باقة زهور إلى جوار زوجها في صورة الملف الشخصي، أضع إبهامي عليه بينما أتلصص على ملامحها خلف باقة الزهور، لو تسمح لأعددتُ لها جلسة تصوير كاملة وحدها دون هذا الرجل. لن أعدّل الكثير في اللقطات وقت الإعداد، حتى الحبوب في وجهها سأتركها وأقبّلها، وأعترف لها أنني أفضّلها بها عكس ما كتبت في أحد منشوراتها عن شكواها من حبوب الوجه التي لا تنتهي.

صار مقررًا ليليًّا البحث عن صفحتها ومعرفة الجديد لديها، ذات ليلة كتبتْ في منشور:

(يا رب البرد يموت).

(سلامتك يا منى تعانين نوبة برد حادة ليحملها عنك زوجك وأنت لا)، قبّلت جبهتها وتمنيت لها الشفاء العاجل. أقرأ التعليقات لديها، لا أثر لزوجها بين المعلّقين في كل المنشورات التي تتركها: يغيب عن التعليق والتفاعل -هذا أفضل- أدخل صفحته، له عيون ملونة باردة لملامح جِلفة، أغلب مشاركاته لآيات قرآنية ومناظر طبيعية، وأحكام دينية قاسية متشددة تدور في فقه النساء وفرض ارتداء النقاب وما

شابه، أحكام طاعة الزوج وعقاب عصيانه والنشوز، لكن أكثر ما أثار انتباهي محل الإقامة المكتوب بالمملكة العربية السعودية.

في الصباح عندما رأيتها وقبل أن تفتح فمها بأي كلمة، وجدتني أسألها عن صحتها وإلى أي مدى وصلت أعراض البرد معها. اندهشتْ وترددتْ قبل أن ترد بكلمة. تداركتُ الأمر أخبرتها أني لاحظتُ شحوب وجهها، ويبدو أنها صدقت.

يقول الزملاء -الخبراء في مجال «الأبلوات»- إنها متزوجة منذ ستة أعوام ولم تنجب وتتراوح الأسباب غير مؤكدة هل هي السبب أم زوجها، وأكدت بعض المصادر المخضرمة أن زوجها مسافر منذ أكثر من عشرة أعوام، يغيب عنها سنة ويعود شهرًا، هذا وقد رجته كثيرًا أن يستقر معها دون طائل حتى وصل الأمر وهددتْ بطلب الانفصال إذا استمر الوضع على ما هو عليه. وقد صرح السادة الذين يتركون الناس وشأنهم ولا يتسايرون بسيرة أحد: أنها غضبانة عند بيت أهلها من نحو ستة أشهر بسبب مشاكل لا حصر لها مع أهل زوجها. في المدرسة يمكنك أن تعرف كل المعلومات مجانًا دون أن تسأل مباشرة، فقط ترمي إشارة من بعيد.

يرن الجرس، أقوم إلى حصّتي، أبحث عن نفسي في عيون الأولاد المبحلقة اللامعة الخارجة لتوها من قشرة الطفولة، يكفي أن أدخل الفصل لأرتد خمس عشرة عامًا للوراء.

لخمسة عشر عامًا احتفظت بالرصاصة.

إنها الحرب..

سنحارب الإسرائيليين وننتصر..

محمد وبلال وإبراهيم وأحمد وعادل ومحمود الجيش المصري، وسعد وعطا ورضا وعمر الجيش الإسرائيلي.

لا أحب أن ألعب دور إسرائيلي: قال أحد الصبية الذين اخترتهم في جبهة العدو في اللعبة المفضلة لي -لأني لم أكن أطيقه- أنا صاحب اللعبة وأنا من أختار من يلعب مصري ومن يلعب إسرائيلي، ومن لا يعجبه يرحل، الأسلحة ملكي وأنا الأمهر باللعبة.

وافق الولد راضخًا على دوره.

هيا نجري إلى ساحة المعركة.

الله أكبر.

يتبعني الجيشان، أحفظ السلاح والذخيرة في حقيبة بلاستيكية تحت بير سلم بيتنا، أحملها على كتفي، أجري وآمرهم بمتابعتي تتعالى صيحاتنا المكبّرة في الشوارع في اتجاهنا لتحرير الأرض. ألتفت إلى جيش العدو الغبي -فقط التكبير للمصريين يا بهائم- يسألني عطا عن نوع الصيحة التي يطلقها الإسرائيليون. هذا الولد الثرثار لا يفهم شيئًا أبدًا إنهم لا يعرفون الله أبدًا، ربنا كان مع جبهتنا في الحرب، ثم إنهم لا يتحدثون العربية، لغتهم الـ... كانت على طرف لساني حالًا، لها نفس حروف لغتنا لكن بالمنتصف حرفان معكوسان، نعم اللغة العبرية، لا أحفظ منها سوى كلمة «شالوم» التي أسمعها في المسلسلات.

ليكن صياحكم شالوم.. شالوم.

تتضارب الصيحات، كثيرًا ما تنسى جبهة الأعداء وتُكبِّر معنا، لا فائدة من تنبيههم -محدودي الذكاء- أسحبهم إلى شاطئ الترعة بالقرب من كوبري خشبي خفيف، أنظر إلى الشمس، أطيل النظر تجبرني على إغماض عيني وعندما أوليها ظهري تتشوش الرؤية. آمر الأعداء بالعبور إلى الجانب الآخر بعد أخذ نصيبهم من السلاح الخشبي لزوم القتال. في الحقيبة بعض من صواريخ الصوت المفرقعة مثبتة بطائرات ورقية صناعة يدي، لنبدأ بالضربة الجوية، بووم بووم طاخ، أشعل الصواريخ وأقذفها في اتجاه الأعداء.

الله أكبر..

بينما أقوم بضربتي الجوية، يبدأ فريقي القصف بالمدفعية، فووووو تاااك، على الجانب الآخر ينتبه العدو، يحاول بلا جدوى أن يصد الضربات المتتابعة من هنا ومن هناك.

شالوم، شالوم.

نحن الأقوى الأفضل والأذكى، والحرب خدعة.

هجوم..

سنعبر الجسر وننتصر..

النصر لمصر..

ندبدب فوق الجسر، خطوات عسكرية منتظمة، نجري نحو الأعداء ونبدأ القتال، فرصة عظيمة كي أضرب الولد عطا ضربًا مبرحًا تحت مسمى اللعب: إذا ما اشتكى لوالده فالمبررات جاهزة، لكنه لن يقدر على الاعتراف بأنه من جيش الإسرائيليين؛ طرحته أرضًا وبدأت الضرب وكلما حاول المقاومة، أنبهه أنه إسرائيلي فتلين مقاومته.

اجتذبتْ الحرب المصغرة المزيد من الأولاد في القرية، كل يوم نحارب بالساعات وننتصر، تتضاعف أفكار الصبية تجاه الحرب، كل من يعرف معلومة جديدة يحاول جاهدًا تنفيذها في ساحة المعركة، صنعنا الأسلحة الجديدة، أحد الأولاد أتانا يومًا بخرطومٍ كبير، فقررنا بناء خط بارليف منيع من التراب وروث البهائم، تدربنا على القتال، حتى إنهم دسّوا الجواسيس بيننا. تمنيت صفين طويلين بطول الترعة من صغار الجنود. لم نملّ يومًا من اللعبة، كل نهارٍ يأتي بالجديد والحرب لا تنتهي أبدًا.

سقط عادل في الترعة وهو يعبر ذات مرة.

كان نهارًا عصيبًا، لا نعلم أي الأولاد صاح بأن الجنيّة جذبته لتحت، ابتعد معظم الصبيان عن ساحة المعركة، وقفت لثوانٍ فقط، عطا وثلاثة غيره معي، فكر عطا في الخرطوم، رميناه لعادل أمرناه أن يتمسك جيدًا سحبناه إلى الشط ونزلنا على مهلٍ ساندناه حتى صعد.

هكذا انتهى أمر اللعبة التي رأيتها صغيرًا في التليفزيون، كل عام في الموعد نفسه، أرى عمي عامر يموت، يركب الطائرة، يفجّر مطارات العدو، يملأ المدفع بالذخيرة يشد الفتيل ويضرب، ينصب الكوبري الخفيف العائم على سطح القنال، يقود المدرعات الفولاذية الضخمة، يعبر مع العابرين، يحمل سلاحه ويصعد سلمًا خشبيًّا معلقًا على ساتر ترابي، يرفع العلم على الأرض المقدسة وينال وابلَ الرصاص ويسقط شهيدًا. في كل مشهد أراه: هنا عمي عامر، أعرفه وسط الزحف المزدحم أقول لأبي، هذا هو عمي عامر بالفيلم، يسخر أبي يخبرني أنه مجرد فيلم وهؤلاء ممثلون، والسينما ليست قادرة أبدًا على صناعة لحظة حرب، ليس إلا كلامًا فارغًا إذا ما قورن بالحقيقة.

هل كان عمي شجاعًا يا أبي؟

دومًا أتخيل عمي بجناحين عظيمين؛ مكان نبت الريشات فوهات بنادق، يضرب الأعداء بلا رحمة ويشرب من دمائهم، يطير ويحمل الصغار الضعفاء يضعهم في أحضان أمهاتهم، تتدبب أصابع أقدامه وتصير مخالب يوقف بها العفاريت عند حدها بينما يحكي لي حكاية حتى أنام.

أريد أن أصبح عمي عندما أكبر.

كان السؤال المعتاد من الأهل عندما تنقطع سكك الحديث بيننا، ماذا تريد أن تكون عندما تكبر؟ أفتح عينيّ حماسًا وأنا أنطق الاسم العظيم، أنتظر الترحم على روحه العطرة، وتُفتح سيرته، أطير فرحًا عندما يشبّهني أحدٌ بعمي عامر، لكني على حسب قولهم أفتح درجة أو درجتين، ويبررون سماره بالشقاء والشمس.

سأدخل الجيش مثله، أتمنى أن تكون مصر محتلة لأحارب الأعداء، لا بد أن هناك عدوًّا متربصًا بنا يريد تحطيم الأسطورة العريقة وسرقة حضارة تسبق الزمن، مثلما ادعى الإسرائيليون أن أرضهم المزعومة من النيل إلى الفرات، لن أتركهم يحققون هدفهم أبدًا؛ سأحارب حتى آخر نفس، فقط عليهم الترويّ إلى أن ألتحق بالجيش. وقتها سأحرر فلسطين بالمرة، نعم سأقضي على الإسرائيليين تمامًا، لن أترك منهم نفرًا. فقط أعبر إلى هناك ولن أكف عن الركض هنا وهناك سأصطادهم واحدًا تلو الآخر سأتخفى في كل مرة ولن يستطيع أحدٌ الإمساك بي، فأنا المدرَّب المقاتل الذي لا يُقهر، لن أقطع شجرة لن أقرب النساء والأطفال، لكن الأطفال حتمًا سيكبرون ولا يسمم أفكارهم إلا أمهاتهم! يكرِّهونهم في العرب: كما حكى لي أبي ذات مرة أنهم يقدمون للأطفال في الأسبوع الأول من الدراسة وجبات كاملة، في الأسبوع التالي يتعمدون إنقاص الوجبة ويخبرونهم أن من سرق طعامهم عربي، المتسبب في جوعهم عربي، من

المؤكد أنهم سيكرهون سارق قوتهم، أعرف تمامًا أنهم ضحايا الفكر المدسوس بالعداء لنا، سأثبت لهم ذات يوم أنهم على خطأ وأننا الصواب، سأقضي عليهم في البداية، ثم أثبت لهم!

هل حاربت يا أبي؟

كان أبي صغيرًا وقت الحرب، غاضبٌ أنا لهذا، لم يكن أبي شجاعًا بما يكفي ليدخل الجيش، إنه يخفي هذا عني لكنّي أعرف تمامًا، فأنا أعرف كل شيء، ما حدث وما سيحدث وما يحدث، تخبرني النجوم بكل شيء.

أذكر يوم أخبرتني بوفاة جدتي المفاجئ، حين أوصلت الخطوط أنارت بوجهها المدور صفحة الكراسة ثم أشعّت في الخطوط غير المرئية بين النجوم. لن يصدقني أحد، ولا مفر من القدر، ليلتها قررت مصاحبة جدتي أطول وقت ممكن؛ كنت أعرف، أقبّل يديها كما أحب، أرشف العسل من خطوط رقبتها المكرمشة، ورغم أنها شديدة الغيرة إلا أنها تتركني أفعل ذلك وتضحك، أراقب أنفاسها طول الليل حتمًا ستتوقف في أي لحظة، أضع إصبعي أمام أنفها لأتأكد من هواء زفيرها، أضع يدي بحرص على بطنها أتابع الصعود والهبوط، أجس نبض العروق بيديها مثلما يفعل الأطباء في الأفلام القديمة وأتابع الدق المنتظم تحت الجلد، أتحسس دفء الجسد، لن أنام الليلة، سأفتح عينيّ على آخرهما، لن أتركهما ترتخيان.

أيقظني آذان الفجر، هل انتهى كل شيء؟ كيف أتركها تموت وحدها؟ هل ماتت؟ ضاعف فزعي ظلام الغرفة، لدقائق لا أعرف عددها فقدت حواسي دفعة واحدة؛ لمس بصر سمع تذوق كلها خارج سيطرتي، هي هنا على مسافة مد يد لا أقوى على فعلها، انتبهت، ارتدت لي حواسي تدريجيًّا، يتسحب ضوء السَّهّار من طرقة الصالة إلى غرفة النوم، تبدو الأشياء أشباحًا صغيرة غير واضحة، أسمع صوت إقامة الصلاة في المسجد القريب، ضربتني البرودة من جسد الجدة، كل شيء حدث وأنا نائم، توقف بطنها عن الصعود والهبوط، وانقطع الزفير عن الخروج. حتمًا لو أيقظت أبي الآن سيبرحني ضربًا، لكن لا بد أن يعرف كي يتصرف، أخبرنا أكثر من مئة مرة مهما حدث لا نوقظه من النوم أبدًا، لا أعرف كيف تسحّب النعاس إليّ ثانية سأتم الليلة في حضن الجدة، وسأدع الأمور للصباح.

متى واربت جفنيّ؟

كيف غلبني النعاس؟

لا أعرف كيف سارت الأمور في الصباح، من اكتشف الأمر، متى استيقظتُ، كيف امتلأ المنزل بمرتديات الأسود، صراخ أمي والجدة خارجة محمولة على الأكتاف رغم العداء التاريخي بينهما، فأمي كانت تكذب وهي تقول إن الحاجّة لم تزّعلها في مرة، الحياة بينهما كانت مشاحنات مستمرة، خناقات تُسمع الجيران، شتائم متبادلة تعلنها جدتي وتخفيها أمي، هل أمي تخفي فرحتها بموت جدتي كما كانت تخفي السُّباب؟ أم أن الموت أفضل مزين للأشخاص! وسامحتها أمي فعلًا.

كل شيء يمر بسرعة وكأن أحدهم يدوِّر الأحداث على ترس دراجة سبق وقلبي منحشر بين الجنزير وأسنان الترس المدببة.

عاد الوقت لطبيعته المملة في الليل، صعدتُ الدرج لأتابع ما ستحكيه لي النجوم، كانت تبكي برغم الصيف، يقولون إن السماء حزينة لوفاة جدتي وهذه علامة مؤكدة على صلاح عملها وقبولها في جنات النعيم إلى جوار عامر.

٦

وصل المدرسة أمرٌ من النيابة بمراجعة كاميرا الدور الخامس المقابلة للمبنى المنكوب، لنفي أو تأكيد الشبهة الجنائية في حادث سقوط الطفل، وقف معظم المدرسين بالغرفة وقت تفريغ التسجيلات، زاوية ميل الكاميرا بين كشفها لطرقة الفصول وجانب السلم: تكشف شرفة الطفل، لم تكن الصورة بالوضوح الكافي، لكنها تفي بالغرض، يساعدها ضوء السّهار الخافت المنسي مضاءً طوال الليل. فُتح باب الشرفة، نزل الصغير عن كرسيه، أحضر ألعابه، بدا كمن يتحدث مع شخص ما، يشبُّ الولد على السور -نصفه من أسياخ المعدن- يلوّح بيديه، يهز رأسه يدخل ويحضر كرسيه الصغير.

يَسْودُ المشهد فجأة.

ليس انقطاعًا فالمؤشر يخبرنا أن الكاميرا ما زالت في وضع التصوير.

ما هذا الشيء الأسود الضخم الذي سدّ المشهد؟

ينكشف المشهد تدريجيًّا، نرى خيطًا أسود يقسم الشاشة، وجه عملاق لفأرٍ يحدق بالكاميرا: قربه منها يمنحه ضخامة، يكمل السير على الجدران فنلمح صغره.

في المقابل يمد الطفل يده باللعبة لأعلى يرفع قدمه على السور، تسقط اللعبة فينزل وراءها، أعدنا المشهد بضع مرات، البعض صوّره على تليفونه، والبعض أكد أن شيئًا ما غامضًا بالفيديو وكأن الولد مسيّر وسُحبت منه اللعبة قصدًا ليسقط. كل هذا لا يفيد التحقيقات بشيء؛ كل ما يهمهم أن الطفل وحده، وكل ما دون ذلك محض خيال. صوّرت المشهد ورفعته على صفحتي، حتمًا سيحظى باهتمام بالغ.

وحدها منى لم تتابع المشهد، تجلس على المقعد الخشبي في حديقة المدرسة المُهمَلة، تمسك كتابًا وتقرأ، أراقبها من داخل فصل فارغ بالدور الرابع، لا أتبين ملامح الوجه جيدًا لكن للجسد ملامح أيضًا. تتوحد بالكامل مع ما تقرأ تبتسم، تضحك، تغضب، تبكي، تحب، تكره، تثور، تغار، ترفع بصرها حيث أقف؛ أتراجع -بغريزة الدفاع- خطوة للخلف، أعرف أنها لن تراني من مكانها، فضوء الشمس الساطع يقابلها رغم برودة الجو، تتلفت حولها كأنها تبحث عن شخصٍ أو شيءٍ ما، أعود إلى مكاني أتابعها.

هل تركت الكتاب أم سقط من يدها؟ لم تهمّ بالتقاطه، وضعتْ يدها على جبهتها، تتنفس سريعًا، اليد الثانية عند القلب، مالت على المقعد، انحسرت الطرحة عن رقبة شديدة البياض، أفتح درجتين أو أكثر عن الوجه والكفين. سأبللهما بلساني وأغرس أسناني في هذه الكريمة الشهية، تميل أكثر وتسقط، هل غابت عن الوعي؟ أم أنا الغائب! رأيت بعض الزميلات يجرين عليها يحاولن إفاقتها، أرى «توك توك» يدخل المدرسة تسندها أبلة هدى من اليمين وأبلة ثناء من اليسار، يسير المشهد بلا صوت خلف شاشتي الزجاجية بالأعلى حيثُ أتابع.

هل رأيتُ منى وسط النجوم الليلة، أم أنني من سيرتُ وجهها بين خطوطٍ من صنعي؟ أراها واضحة، رقبتها تلمع بضوءٍ مبهر، سأقذف مياه النيل فقط لو ألمس تلك الرقبة المضيئة. لو يلين طين الرقبة في يدي لضاعفت طولها حتى يمكنني احتضانها بكامل طولي والاختباء بها، أمرر جسدي كله عليها، حتمًا سأشتعل، سأصبح نجمًا هناك في السماء وأنقل الضوء للعابرين.

غابت منى عن المدرسة اليوم التالي، بحثت عنها كثيرًا، تلكأت أمام موظفة الدفتر، سألتها عن الأحوال والصحة وابنها محمود زميلي، خلسة نظرت في الدفتر لأجد مكان اسم منى علامة حمراء. المكان موحش دونك يا منى.

«سمعت أن الإسعاف دخلت المدرسة».

الجملة الافتتاحية لمعرفة الأخبار، قال الأستاذ سيد المحنك الراضع من ثدي أمه:

«الأبلة منى تعبت بالأمس في المدرسة، زوجها عاد من السفر، وهناك أنباء عن حملها».

٧

- «كان عمك عامر يرى العفاريت.».

الليل على الجبهة طويلٌ وموحش، في ليلة من ليالي نوبات الحراسة: حرق عمك عامر العلم الإسرائيلي من مكانه على جبهتنا، تراهنّا على خمسة جنيهات صحيحة إذا فعلها، طلب مني أن أختار العلم الذي سيحرقه، كنت أظنه يمزح، لكنه كان جادًّا في قوله، الأعلام البغيضة على الجانب الآخر من القنال على بعد كل مئة متر رشقوا واحدًا، احرقها كلها يا عامر، لن تحتاج لعفاريتك، النيران في قلوبنا تكفي.

اشترط أن أحدد واحدًا فقط، أشرت إلى المقابل لنا مباشرةً، برغم الظلام رأيت وجهه بوضوح، أطبق قبضته اليسرى في حضن اليمنى وقربهما من فمه وأسرّ لهم بخبر، وعينك لا ترى إلا النار، بالعلم المحدد».

- «كيف كان يفعل ذلك؟».

سألتُ وأنا أرى حماسة نار العلم المشتعل باقية على وجه العم جاد الكريم إلى الآن. عرفت طريقه من أبي، في قرية مجاورة، نزلتها وسألت عن منزله، عرفت أنه دائم الجلوس في محل أعلاف يجاوره، رحّب بي الرجل، أخبرني أنه عرفني من الطلّة، ما زلت أفرح بالشبه بيني وبين عمي عامر.

لم أخبره شيئًا بشأن الرصاصة، تركت الحديث يسيرُ في مساراته الطبيعية، اصطحبني إلى منزله، دخلنا غرفة لاستقبال الضيوف منفصلة عن باقي البيت.

- «عدّة القهوة لا تنقطع عن الغرفة، مزاجي لا ينعدل إلا إذا أعددت القهوة بنفسي، سأعلمك أسرار القهوة، قد صرنا أصدقاء، والبيت بيتك، كيف تشربها؟».

لقهوته رائحة نفاذة مميزة، أخبرني أنه يشتري حبوب البن ويطحنها بنفسه ويضيف تحويجته الخاصة من الحبهان والمستكة وأعواد القرنفل، يصنعها بمزاجٍ رائق، تضرب بالرأس فقط بالشم، ما بالك بالتذوق.

- «تجعل القهوة ذاكرتي شفافة، أرى الأحداث بوضوح المياه الصافية، أنفذ في الزمن بلا حواجز، لا يكف عامر عن اللعب بعفاريته، كل ليلة تنفّذ له أمرًا، في ليلة طلبنا منه أن يحضّر أموالًا كثيرة، تعرف ماذا فعل؟».

- «ماذا؟».

- «قال إن عفاريته لا تعمل بالبنك المركزي. كنا نموت من الضحك. في صباحاتٍ نستيقظ نجده أنجز نصف عمل الكتيبة المقرر وحده، هو فلاحٌ صلب لكن ما يفعله يفوق الخيال».

في ليالٍ يكاد يقتلنا الملل، وإذا بعامر يفرّجنا على فرحٍ بالضفة المقابلة -أه والله فرح- أضواء وأصوات وزفة عروس وعريس وعوالم ودخان كثيف. لا أعرف كم امتد الفرح، كنا نرى ونسمع، نصدق ليلًا وفي النهار ننسى كل شيء. تفزعنا الدشم كما هي والأعلام الإسرائيلية ترفرف على قواعدها الخرسانية والساتر الترابي مرشّق بالأوتاد الخشبية.

خدمت مع عامر في منطقة قريبة من الأراضي الزراعية، هجرها أهلها بعد أكثر من قصف غاشم متتالٍ، أوقات راحته تجده عند الأرض يحرث، يروي، يساوي، يبكي بالدموع إذا ما أصابت شظيةٌ بهيمة تائهة، يسهر إلى جوارها إن لزم الأمر تئن فيواسيها. يعِدها إذا تعافت سينقلها إلى قرية قريبة آمنة، يطعمها ويسقيها ويتحدث إليها حتى تتعافى، يطلب إجازة يومًا أو نصف يوم حتى ينقلها إلى أصحابٍ يرعونها. يزرع ولا ينتظر الحصاد.

طلب منه أحد الجنود في ليلة أن يسيرَ على مياه القنال وقد راقته الفكرة. تجمَّعنا لنشاهد الحيلة، بدأ الاستعراض، يسير كالممثلين على خشبة المسرح، نزل عن الساتر الترابي، وقف على شاطئ المياه، رفع قدمه في وضع استعداد للسير، وقفنا كالمنوَّمين في انتظار الخطوة القادمة، وإذا بعمك عامر يسقط في المياه، تفاجأنا أكثر من لو أنه سار فوقها، أجاد عمك العوم لكن يبدو أنه الآخر تفاجأ بسقوطه، صار يضرب المياه بيديه فزعًا حتى استعاد توازنه واستعدنا وعينا بما حدث، ساعدناه حتى صعد، لم نحُش أرواحنا من الضحك، وكان أول الضاحكين، أخبرنا أنه لوهلة صدّق أن بإمكانه السير على الماء، حمد الله أنه ترك سلاحه على الشاطئ قبل السقوط.

لم نعلم من سرّب الخبر إلى قيادة الوحدة، في ظهيرة اليوم نفسه استدعوا عمك عامر على وجه السرعة، مرت ثلاثة أيام دون أن يخرج -انطلقت الشائعات حول جندي نزل إلى القنال فارًّا إلى معسكرات العدو، بعد أن عرفوا منه كل المعلومات الخاصة بالجيش؛ هددوه بتسليمه إلى الجيش المصري عن طريق الصليب الأحمر، حتى رضخ لكل مطالبهم طامعًا في الثروة- وما كانت حادثة عمك المشابهة إلا مثيرة للشكوك، سمعنا أنه تعرض لاستجواب صعب، وبسؤال أفراد الكتيبة الشهود على الحادث تأكد لهم زيف شكوكهم؛ أطلقوا سراحه -سمعنا أن القائد طار فرحًا عندما بشره عامر بخبر ولادة صبيه الأول بعد ثلاث فتيات، وأتاه الاتصال المنتظر- لم يكن عامر يخبرنا بكل شيء؛ فالأخبار في الكتيبة تتناقل رغمًا عن أصحابها، لا شيء سريّ كما يدّعون.

ما الذي يعرفه جندي مثل عامر ليتكاسل عن أوامر القادة، تلك الليلة قرب الفجر أيقظونا على غير العادة، أخبرنا قائد الكتيبة أننا سنعبر في الصباح، تصايح الجنود كلّ يجهز معداته وملابسه، البعض ذهب ليقضي حاجته، جلس عامر على سريره يتمطع ويتثاءب، سمعت صوته واضحًا (ليس اليوم) كان واثقًا، نتحرك مثل الممثلين في الأفلام الصامتة حين تسرّع الكاميرا حركتهم، وعامر يتحرك بالإيقاع البطيء (أعرف، أعرف) قال الكلمة وكررها كأنه يوجه حديثه لأحد، لاحظ القائد تمتمات عامر، اتهمه بالتخاذل وأمره بسرعة التجهيز والحركة، تمتم عامر ببضع كلماتٍ غير مفهومة، ثبّته القائد بالسلاح وأمره بالانتباه ورفع يده، أقسم إنه لو تخاذل سيفرّغ بندقيته في ظهره، ثَبتَ عامر مكانه تلقى الأوامر واستعد للتنفيذ، تركه القائد، صارت الكتيبة خلية نحل الكل يعمل ويستعد ينتظر يترقب إلا هو كان فقط يمثّل الحركة ولا ينتظر شيئًا -ساورتني الشكوك بشأنه تلك الساعة بالذات- وتضاعفت عندما صاح القائد بعد صفّنا وتمم على كمال استعدادنا أنه لا حرب اليوم. ما حدث لا يخرج عن كونه تجربة الأمر وكيف سنتصرف إذا ما وُضعنا قاب قوسَي حرب. ألحظ الدموع ساخنة من جندي علي الصعيدي، جثا إبراهيم السكندري على ركبتيه، لمحت تنهيدات خفية وابتسامة ساخرة على وجه عمك عامر.

ليلة الحرب أخبرنا أنه يرانا في الجانب الآخر من القنال، رأى العبور والانتصار، قال إن بإمكاننا فعلًا السير على الماء: صدقته، البعض في الكتيبة أطلق عليه الشيخ والمبروك، والبعض صدق أنه ساحر يسحّر العفاريت، لكني رأيته أبعد من التبرك والمشيخة، كان شديد الذكاء، شديد الحساسية والتقاط الخيوط وتربيطها ليصل إلى نتائجه التي لا تخطئ، الأمهر في الرمي وإصابة الهدف بمنتهى الدقة، يفك ويركب السلاح أفضل من صانعه بخفة وسرعة وآلية الاعتياد حتى مع كل حديث يصل..

لِمَ حذفت منشور صورة الرصاصة؟».

- «هل رأيته؟».

- «نعم، شاركه أحد الأصدقاء المشتركين بيننا، تصفحت حسابك لأتأكد أنك قريبه؛ الشبه بينكما أخبرني، لفت انتباهي التعليق على الرصاصة نفسها ونوعيتها، فكرت أن أحدثك عبر الرسائل، لكنك حذفت المنشور، عرفت أنك قادم؛ ولم يخب ظني».

- «ماذا يعني مقتل عمي عامر برصاص مصري؟».

- «الاحتمالات كثيرة ومتشعبة ومعقدة جدًّا، أولها وأبسطها أن القتل قد تم بالخطأ».

٨

خطأ!

تاريخ البطولة والشرف والفخر في عائلتنا مبني على خطأ: عُيِّن أبي بالحكومة لأنه أخو الشهيد، دخل عمي الجيش للسبب نفسه، خمسة أو ستة من شباب العائلة لهم اسم عامر تيمنًا بالشهيد! أول موضوع تعبير أكتبه، أول كلمة لأول برنامج إذاعي مدرسي أعده للطلاب، فضلًا عن عشرات المحاولات لتحويل قصة عمي عامر لرواية أدبية. بالإضافة إلى الأحاديث التي لا تنتهي في ليالي السمر.

عمتي حنان لا تصلي ولا تصوم وتؤذي الغريب والقريب بلسانها وتصل بعض النوبات إلى الضرب؛ رغم ذلك تثق بدخولها الجنة؛ لأن أخاها شهيد وسيشفع لها بالدخول.

- «وما الغريب في هذا الاحتمال، أليس واردًا أن يُقتل مصادفة؟».

- «هل المصادفة تعفيه من الشهادة؟».

- «بكل الأحوال قد مات مدافعًا عن الوطن».

- «وباقي الاحتمالات؟».

- «يحق للقائد رمي الجندي بالرصاص إذا رآه هاربًا».

المصادفة أهون إذن، مزعج أن تفكر فيما لم تألفه لعمرك، تتشقق أسطورتك الخاصة استعدادًا للسقوط بلعبة احتمال، الأمر يستدعي البحث والسؤال، لكنني هنا على بعد أكثر من خمسة وأربعين عامًا على ما حدث.

- «ألم تكن مع عمي في الفرقة نفسها؟».

- «يبدو أنك لم تدخل الجيش، تنقسم الفرق إلى كتائب وألوية، نتقابل ونتفرق حسب المهمات الموكلة لنا، والأمور في الحرب لا تسير على وتيرة ثابتة.

بعض الأمور تحدث سرًّا دون ضجة في الحرب كي لا تؤثر بالسلب على باقي الجنود، لكن عمك الذي حارب لأكثر من أسبوعين بمنتهى الشجاعة يصعب تصديق هذا الاحتمال عنه».

- «نعم: كل ما بنيته من قصص وحكايات وصلت معي إلى حد اليقين المطلق على وشك الانهيار، مفزع أن تصلب إيمانك طول الوقت على جبل وتكتشف فجأة أنه ما كان إلا سرابًا. وتبحث عن البدائل، ماذا عن الحقيقة هنا؟».

- «لا شيء».

- «لا ثابت».

- «الاحتمال الثالث كان الأبشع:

أن تُكتشف خيانة الجندي في الحرب، وقتها الأمر لا يحتاج إلى انتظار محاكمات، ويستوجب سرعة التنفيذ».

سقطنا إلى أسفل سافلين، أسمع صوت هدم برأسي كأن منزل الجيران سقط بضربةٍ واحدة.

- «ألم تكن صديقًا لعمي؟».

- «تعلمت من الجيش والحرب ألا أتوقع مهما حدث، ولا أثق أبدًا».

عقلي بين شقي رحى حجرية دائرة، على وشك الفوران كالقهوة في الكنكة، يرفعها عم جاد الكريم حالًا عن نار السبرتاية الضعيفة؛ ليسوّي البن على مهل.

رن الهاتف، اعتذرت لعم جاد الكريم على المقاطعة واستأذنته في الرد على والدي، من الجانب الآخر أتى صوت أبي حاسمًا بضرورة العودة إلى المنزل حالًا دون نقاش، أغلق الخط دون سلام. لم أطمئن لتلك النبرة قط، لاحظ عم جاد قلق ملامحي، سأل إن كان بإمكانه المساعدة، أخبرته بضرورة انصرافي الآن ورجوته بتحديد موعد آخر لاستكمال الحديث، رحب العم وأكد أن البيت صار بيتي.

- «ماذا تريد يا بلال؟».

لا أخطئ طبقة الصوت هذه أبدًا، أعرف أنه اكتشف مصيبة فقط وهو ينادي يا محمد. يلقي بالتهمة ويصدر الحكم ويبدأ التنفيذ، قبل أن يسمع دفاعي.

«تضرب أختك الصغيرة يا حيوان». تتوالى الصفعات على وجهي يمينًا ويسارًا.

«تجري وراء العربات يا كلب». يخلع حزامه الجلد وينهال عليّ باللسعات.

«تغيب عن الدرس أسبوعًا كاملًا يا حمار». ويخلع نعله لينفض ترابه على رأسي.

«تكتب لزميلتك خطابًا غراميًّا يا تافه». يُسقطني أرضًا ويرفسني بقدميه.

لا أعرف كم عامًا مضى على آخر عقاب ولدهشتي كان لومًا خفيفًا: «هل تظن شرب السجائر رجولة؟»، من بعدها ولم تمتد يده عليّ قط، لكن له نظرةٌ تلسع أكثر، ولسانٌ لاذع لا يكف عن التوبيخ. فقط أسمعه يناديني يا محمد.

- «فيديو إيه اللي انت منزله على صفحتك. خلاص التصوير والنت ضيع دماغك».

- «أي فيديو تقصد؟».

- «أبو الطفل شاف الفيديو، تعب جدًّا ونقلوه المستشفى. لازم تشيله حالًا وتروح تعزيه وتعتذر له».

لا أحب أجواء العزاء، أتهرّب منها قدر استطاعتي، أستغرب الموت، هذا السكون اللاحق بالأحياء على حين غفلة، صلة خفية بين الجسد والروح لا أدري أي يد تمتد وتقطعها، أهابه من بعد وفاة جدتي في حضني، لقد أراحت جنبها وأغمضت عينيها ولم تفتحهما ببساطة، لشهور طويلة بعدها كل ليلة حين أغمض عيني لا أثق إن كنت سأفتحهما في الصباح أو لا.

أي خطأ فادح ارتكبت بتحميل هذا الفيديو على صفحتي! يقولون إن أبا الطفل ظل متماسكًا إلى أن مرر أحدهم الفيديو إليه في الرسائل يسأله هل هو ابنك؟

حذفت الفيديو من صفحتي: أي قسوة ضربتُ بها قلب هذا المسكين المرمي بالمستشفى؟ معميٌّ أنا بكم الإعجابات والمشاركات والتفاعل. لم أعمل لهذه اللحظة حسابًا. ما فائدة الاعتذار الآن! وهل يمكن لرصاصةٍ الاعتذار إلى قلبٍ سكنته!

سمعت الطبيب يطمئن أهله ولا يحبذ وجوده في المستشفى، فكل الوظائف العضوية تسير طبيعية، الأمر نفسي. ساعدت رفاقه في حمله وإنزاله، تحملت النظرات اللائمة دون كلام، لم يكن لي مكان في السيارة معهم، بعد شد وجذب ومحايلة تمكنت من الحصول على تذكرة الدواء لأحضره له وسألحقهم بالمواصلات.

البيت المقابل للمدرسة، أتخيل الطفل ملقى على عتبة المنزل الإسمنتية الخشنة غارقًا في دمائه، أبعد الصورة عن ذهني، أحاول تفادي أثر الدماء غير الموجودة من الجرح النازف على أعتاب المنزل!

الكراسي المبطنة بالقطيفة الزرقاء على الجانبين بمدخل العمارة، صوت القرآن منبعث من كل الشقق على طول أدوارها الستة. وصلتُ الشقة حيث العزاء، النساء مرتديات السواد، النهنهات والدموع المكتومة والصريحة، دخان بخور يُدمع العينين ورائحته تسد الأنف، صوت شيخ يتمتم بأدعية وأذكار، طرقت الباب، خرجت سيدة تخطت الستين ببضعة أعوام، شديدة النحول، لا أعرف إن كانت نظرتها لي غريبة أم الموقف ما جعلها تبدو بهذا الشكل. رفعتُ حقيبة الدواء وطلبت منها الدخول لتسليمه لأبي مصطفى، أشارت لي إلى مكان الغرفة دون كلام، لم أقوَ على تقديم أي عذر والضغط على الجرح من جديد، تركت الدواء لمن حوله لمحت صورة مصطفى الصغير على الحائط جوار الباب، كم هو جميل، يشبه أطفال الإعلانات الحُمر الوجوه يقولون عن مثل هذا الطفل ابن موت. لم أحتمل التواجد أكثر من ذلك في المكان، يضيق نفسي، أشعر بثقلٍ ضاغطٍ فوق كتفيّ، خرجت من الغرفة، وجدت السيدة النحيلة أمامي، تحدق بي طويلًا، سألتني:

«أنت قريب عامر التهامي عزيز؟».

٩

خارجٌ من المنزل، أمر أمام المدرسة ليلًا، ما زالت تثير فضولي في المساء. أتذكر يوم انتهيتُ صباحًا من اختبارات نصف العام، في الليل أجرى أبي اتصالًا، كتب أرقامًا، أخبرني أنني قد نجحت على المحك.

- «كيف حصلت على الدرجات يا أبي؟».

- «من الكنترول».

أي مدرسة هذه التي تفتح إلى الليل، مَن المدرسون الباقون إلى الآن! ثم ما هذا الكنترول؟ تأكدت شكوكي بخصوص العفاريت، لم أصدق الأمر في البداية رغم تأكيد معظم الزملاء. المبنى مسكون، وبالتحديد المنزل المواجه له، تنام عفاريته نهارًا، وترتع وتلعب فيه ليلًا، يقول أحد الزملاء إنه رآهم بعينيه اللتين سيأكلهما الدود، طابور طويل منظّم: القصير في الأمام والأطول في الخلف، في نهاية الصف أطولهم: والذي ينطح برأسه السحاب. أكثر من نوبة نتأكد من غلق النوافذ، ونُصدم بالصباح حين ندخل الفصل نجدها مشرعة. هذا ويسمع الجيران أصوات التكسير طوال الليل. وقد أكد بعض الرواة القدامى أن المنزل أمام المدرسة سُجنت به فتاة صغيرة فترة طويلة وروحها مسلّطة على الانتقام من المكان وما حوله.

هذه الأرقام المنخفضة في نتيجة الامتحان قد عملتها العفاريت انتقامًا منّي: عقب رمينا منزلهم بالحجارة أنا وطابور طويل من الصبية، بعد أن أكد أحدهم أنه رأى العفريتة خلف النافذة وأشار هناك، يصيح آخر: رأيتها أنا أيضًا، ليس معقولًا أن يراها كل الصبية ما عدا أنا، هي حتمًا هناك وأنا لا أميّز!

***

في المدرسة ليلًا أجلس مع الزملاء أعضاء الكنترول، نتمم أعمال سير الامتحانات. وافقتُ فورًا على طلب المدير بالانضمام إلى لجنة سير ومتابعة الامتحانات (الكنترول)، فقط دفعني الفضول لأرى المدرسة ليلًا، وأفهم طبيعة هذه العملية.

كانت المرة الأولى للتعامل المباشر مع منى، أطلب من المدرسين ومنها درجات أعمال السنة، نراجع الأرقام قبل الرصد في فرخ الورق الأبيض الكبير، نرص الأدراج ونكتب فوقها أرقام الجلوس، نلصق قوائم الأسماء بكل لجنة. أرقام الجلوس يقابلها أرقام سرية لا يعرفها الطالب أو المصحح، هذا المربع بورقة الإجابة.

كان يربكني، ما السري هذا؟ إلى أن يمر مدرس يحذرنا من الكتابة فيه، كنتُ في المقعد أسمع التحذير الذي صرت أوجهه إلى الطلاب الآن.

بعد أن يفرغ الطلاب من الحل، نستلم مظاريف اللجان بأوراق الإجابة، نجلس صفًّا من أربعة أعضاء، أحاول التقاط ما يفعله رئيس الصف بالأرقام السرية، يعيد ترتيب الأرقام حسب خطة مقيدة معه وحده، يكتب الرقم السري مرتين، في المربعين المخصصين لهما، في أعلى الورقة وفي التيكيت القابل للقطع، نمرر الورق بيننا، أبدأ بقطع المربع الخاص ببيانات الطالب ورقم جلوسه، أسلّم الورقة للزملاء لتقفيل الورقة وملاحظة إذا كان بها علامة مميزة تُمكّن بعض المدرسين من كشف هُوية الطالب.

يبدأ المدرسون بالتصحيح، ثم نراجع بعد ذلك على تجميع الدرجات، نتأكد من تمام تصحيح جميع الجزئيات، ونرصد الدرجات.

يُمتعني اكتشاف أخطاء التصحيح أثناء المراجعة بالأخص مادة الرياضيات، يُؤخذ الموضوع على محمل الانتصار والهزيمة، معارك صغيرة من الأخطاء تصل إلى الهفوات التي يمكن التجاوز عنها، لكنها في ذاتها تحدٍّ للمادة ومدرسيها، لكن الأمر يختلف مع اللغة العربية، فقط أريد إطالة الحديث مع منى، حتى وإن كان الأمر يخص تجميع الدرجات فقط.

أتجول في المدرسة ليلًا، أصوّر الفصول المظلمة، أفتح النوافذ التي تأكد الطلاب من تركها مغلقة!

يحلو لنا ليلًا فتح سيرة عفاريت المنزل المقابل والضحك عليها، يُخبرنا أبو العريف أفندي أن الحكاية لها أصل، الأصوات المرعبة التي أفزعت أهل الشارع والشوارع المجاورة لم تكن إلا سيدة احتجزها زوجها لشهور: يعذبها لأنها خانته. وفي الصباح يشكو مع الشاكين من الأصوات المفزعة، كان يغيب عن البيت أيامًا تاركًا لها الكفاف من الخبز اليابس والمياه، تتناولها بفمها لأنها مقيدة. لأيام لم ينقطع الصوت ليلًا نهارًا، أنين بشري مذعور، قرر بعض الصبية موتى القلوب اقتحام المنزل واستكشاف الصوت حتى وجدوها: فقط الجِلد يغطي العظام، عيونها غائرة ومرعوبة، رائحتها قبر، بحذر فك الصِّبية وثاق السيدة ورباط فمها، قامت تتخبط في المشي خرجت إلى غير عودة.

ثار جنون الرجل حين عاد ولم يجدها، بعد زمن تتوه المصائر مع الذاكرة، هل ترك القرية ولم يعد، أم أدخلوه مستشفى الأمراض العقلية، أو مات بحادث سير؟ كل الأخبار الآن غير مؤكدة، لكن الأصوات عادت تتسرب إلى الجيران من جديد، وأشيع مجددًا أنها روح السيدة عادت لتنتقم. حتى بعد هَدْم البيت وبنائه عمارة ستة أدوار..

أغلب الظن أن السيدة عادت فعلًا بعد فترة وعاشت بالمنزل وحدها.

سمعت أنه حارب في ٧٣ وفقد عقله بسبب الحرب. لا تنتهي أحاديثهم أبدًا وإضافاتهم التفاصيل الناقصة في كل المشاهد.

سمعت صوت هاتفي يرن برسالة فيس بوك: دخلت الصفحة الشخصية لصاحب الرسالة، هو العم جاد الكريم صورته في الشباب أيام الحرب بالزي العسكري. ترك لي عنوانًا ورقم تليفون وأخبرني أنه لزميل عمي عامر في الكتيبة، وقد حدد لي موعد يوم الجمعة القادمة لمقابلته، فلديه تفاصيل قد تفيدني.

١٠

وضعت لمنى إعجابًا على آخر منشور لها. انتظرت، هل ستغضب؟ ستعرف أنني أراقبها، ستلومني في الصباح أثناء الطابور؟ ستتجاهل؟ وما التجاهل إلا لوم مغلف بقسوة مدببة، هل مر يوم، بعض يوم، ألمح اختلاس نظراتها لي في الصباح من بين رؤوس الفتيات المتراصة، هل تعيد اكتشافي من جديد، هل قرأت منشوري الأخير عن جمال رقبة وردة وهي تغني؟ شاحبة أنت اليوم يا منى، صفراء ذابلة كالشجرة في الحديقة الصغرى خلف ملعب السلّة، دومًا ألحظ بوارها -حتى إني لا أسأل عن نوعها- لا تورق في أي من الفصول ولا أحد يحرّكها من مكانها أو يهتم لشأنها، لا تمد الظل ولا تمنح جمالًا ولا تثمر أبدًا، مجبرة على مكانها بين الأولاد الأشقياء يكسّرون فروعها وهم يتفرجون على المباريات في الحوش الفسيح، الفائدة الوحيدة التي تذكر لها هي قربها من السور فيتمكن الهاربون من الوصول إلى السور بسهولة فارين من المدرسة.

فعلتها في مثل عمرهم مرة؛ لكنها لم تكتمل، شبّك لي أحد الرفاق يده صعدت وقفت على السور، وعيني لم ترَ إلا أبي في وجهي، كان نهارًا أسود لم تشرق له شمس، الغريب حقًّا أنه تضاعف، كل الرجال في الشارع صاروا أبي على اختلاف أحجامهم وألوانهم وأشكالهم.

«تقفز من السور يا ابن الكلب».

آه من الكلب وابنه، إلى الآن لا أستطيع أن أجزم هل رأيت والدي يومها أم لا؟ لكن لم أكررها قط.

ماذا سيفعل أبي لو رآني على حافة السور الذي أتسلقه الآن؟

يصعد الطلاب إلى فصولهم في انتظام إلى أن يصلوا البوابة المؤدية إلى السلم، يبدأ زحامٌ غير مفهوم بدايته من نهايته، إذا لم يستطع المدرسون الصعود قبل الزحام ينتظرون إلى نهاية الطابور. انتظرتْ منى وحدها، سحبت الكتاب الذي سقط منها أول أمس و تقدمت نحوها.

- «رأيت ما حدث وأنا بالأعلى، احتفظت بالكتاب لأعيده لكِ».

- «أشكرك».

- «أنا أيضًا أحب بهاء طاهر».

- «صحيح، ربما هذه القراءة العاشرة لرواية الحب في المنفى».

- «قرأتِ واحة الغروب؟».

- «لا، هل أجدها لديك؟».

لمعت عينا منى وهي تتحدث عن الكتب، أضاءت الوجه بالكامل، صعد الطلاب والمدرسون، بقينا واقفين، لم نعرف كم مضى من الوقت ونحن نتبادل عناوين الكتب التي أعجبتنا والكتّاب المفضلين، بدايات القراءة، انتبهت منى لنظرات بعض المدرسات حولنا، مر الوقت وبدأت الحصة الأولى دون أن نشعر، سحبَت الكتاب بابتسامة ود رطبة بلّتْ ريقي.

- «هل يمكنني استعارة واحة الغروب منك؟ سأعيدها سليمة ونظيفة، أنا أحافظ على الكتب».

وصلتني رسالتها في الليل، هذه بداية جيدة للحديث يا منى، أستعيد طاقة القراءة منك، لسنواتٍ لم أعد أقرأ رغم انتظامي عليها في سنوات الثانوي والجامعة وما بعدها بقليل إلى أن انتهت أحلامي بالعمل في الصحافة. لدي مكتبة صغيرة أغلبها روايات وكتب تاريخ، ومعظم كتب التاريخ عن فترة ما بين النكسة والحرب.

انتبهتُ إلى أن الحساب المرسل منه الرسالة يختلف عن حسابها الأساسي -وقد اقتصرتْه على الأصدقاء فقط- يحمل نفس الاسم وصورة لها معدلة كأنها رسومٌ كرتونية. أرسلتُ لها طلب صداقة وافقتْ على الفور.

- «سأبحث لكِ عن الكتاب، لكن اعذريني ليس الليلة».

- «كما يناسبك».

قمت على الفور أقلّب في المكتبة، أحاول تذكر مكان الكتاب، هل استعاره أحد الأصدقاء ولم يعِده؟ أخشى ألا أجده.

أمرر الشاشة في صفحتها الشخصية، وجدت صورة قديمة لسيدة تشبهها جدًّا كتبت عليها:

«كانت شديدة البياض؛ تستطيع أن ترى مرور المياه من رقبتها وهي تشرب».

نسخت الصورة عندي ثم أرسلتها إليها وسألتها إن كانت جدتها؟

- «نعم جدتي لأمي».

- «تشبيهنها جدًّا، هل يمكنكِ رؤية مرور المياه من رقبتك؟».

- «آه من هذه الجملة التي تطلقها أمي عندما تضرب بجمال أمها المثل، شديدة البياض النقي حد الشفافية، لا يسعفني الخيال أبدًا وأنا أرسم الصورة الأسطورية من المياه وهي تمر في حلق تلك المرأة البلورية المضيئة، هل لها وميض خافت بالليل وهّاج بالنهار؟ كثيرًا ما أسمع أني ورثت عن جدتي البياض، أملأ كوبًا من الماء، أقف أمام المرآة وأشرب، لا ألمح مرور المياه من رقبتي!

تعرف..

عندما سألتُ أمي قالت إن أمها أفتح درجة، جُننت، صرتُ أغسل رقبتي بالصابون يوميًّا ثلاث مرات، اشتريتُ كريمات تفتيح البشرة أضعها ليلًا نهارًا على رقبتي، أجرب الوصفات الطبيعية والصناعية للتفتيح؛ أكرر تجربة شرب المياه أمام المرآة ولا ألمح مرورها من رقبتي.

تقول أمي إن جدتي لم تكن تكذب -كما لا أفعل- وكانت تطيع والديها، وتصلي فرضها، وتحسن معاملة من حولها. أعرف أنا هذه الوصايا المدسوسة كي أطيع الأوامر وأغسل الصحون، لكن ماذا لو صح الأمر، لنجرب ثلاثة أيام أو على أبعد مدى أسبوعًا كاملًا، سجلت كل الأعمال الحسنة التي عملتها خلال اليوم. غسلت الصحون، صليت ثلاثة فروض فقط لم أستيقظ الفجر ونسيت العشاء غدًا سأتمها، غسلت جواربي فور عودتي من المدرسة ونشرتها، كتبتُ فروضي المنزلية أولًا بأول، علقتُ ملابسي على الشماعة، نظفتُ غرفتي، كل ليلة أمام المرآة أشرب كوبًا من المياه وأنظر، لم أرَ مرور المياه، سأجن.

ستكون آخر مرة أكرر التجربة، في الصباح سرًّا فتحت حقيبة زميلتي اليتيمة دون أن تعرف ودسست بها مصروفي وما معي من طعام وأغلقتها. بعد الظهر ملأت كوب المياه، رفعت رأسي أمام المرآة، مررت يدي على رقبتي كانت أفتح من كل مرة، تجرعت شربة ماء، لثانيتين احتفظت بها في فمي، رفعت الرأس بالقدر الذي يمنح العين متابعة الرقبة في المرآة، بلعت الماء، أضاءت رقبتي بتشبيحة المياه حين تعكس لمعة الشمس، هل أضاءت الغرفة وجسدي بالكامل؛ صرتُ نورًا، وقتها لمحت اهتزازة الشباك وانعكاس ضوء الشمس عليه مُبعثَرًا في المكان، لم أعرف أيّ منا يعكس ضوءه على الآخر».

كانت تشد أطراف الحديث من كل الاتجاهات فقط بالكتابة، لو أسمع صوتها وهي تحكي، أتوسد الرقبة المنيرة، أرشف من معين النور ولا ينضب، هل تعرفين أني أضيء وأنتِ تحكين، آه لو أمامي الآن يا منى لمرَّرتُ الضوء برقبتك تلك.

- «لو أنني أكتب الشعر لنظمت لرقبتك قصيدة».

ولأكون دقيقًا سأكتبها عليها بحبرٍ خاص يليق بها. سكتتْ، انتظرتُ، تأسفتُ لها، أكدتُ أنني لا أنوي سوءًا، يخبرني التطبيق أنها تكتب رسالة.

- «هل حاولت كتابة الشعر من قبل؟».

أكاد أسمع ضجيج قلبها عبر زجاج الهاتف، ارتباكها وحمرة الوجه يصيحان بي أن أكمل ما بدأته.

- «لو أنكِ معي لكتبت».

كلامٌ قديمٌ محفوظ، لكنني أثق بسحرية فعله تسري بعمودها الفقري، تتسحب برفقٍ على كتفها اليسرى التي لا تحتمل صدى ضربات القلب.

- «غادرني الشعر منذ زمنٍ طويل».

- «فقط ببعض التدريب تعودين، أثق بذلك، ما رأيك نعقد اتفاقًا؟».

- «ما هو؟».

- «تشجعينني على القراءة، وأساعدك في الكتابة».

- «أوافق».

أعرف مسبقًا أنك ستوافقين يا منى، إليّ إليّ يا منى، تقدمي نحوي على مهلٍ وأنا هنا في انتظارك. أسمع رفيف جناحيك الآن، تخلصي من كل أثقالك وحلقي معي.

خرجتُ إلى الشرفة، وصل بناء البيت المجاور إلى منتصفه تقريبًا، بعد رمي الأساسات ونصب الأعمدة، أرى الخشب مثبتًا لصبّ سقف الدور الأول.

- «أخبرني كيف حصلت على الرصاصة يا محمد؟».

سألت منى..

١١

يومها..

لم أعرف ماذا قصدت النجوم بمثلثٍ مقلوبٍ، علامَ يدل؟ ثلاثة أضلاع قاعدتها بالأعلى واضحة جدًّا، لكن غير مفهومة، قليلة هي المثلثات من حولنا، أغلب الأشياء تقع بين شكل المربع والمستطيل والدائرة، بعض الوجوه مثلثة، إذا كان الذقن مدببًا فالوجه يبدو مثلثًا مثلي: جبهتي عريضة وينسحب الوجه لفك صغير وذقن مسحوب يوحي بالمثلث، يقولون إني ورثت هذه الرسمة من عمي عامر، هل تقصدني النجوم أم تقصده، لا أعرف ما الذي ألقى بخاطري: أرض سيناء أيضًا تشبه مثلثًا مقلوبًا؛ إذن النجوم تشير إليه.

بماذا تريدين إخباري أيتها النجوم؟

بدأت ملامح وجهه تتضح أكثر، تكاد تنير السماء، وجدتني أوصل خطوطَ النجومِ بصفحة كراسة النجوم حتى اكتملت ملامحه.

في الصباح استيقظتُ على صياح أبي:

- «بحثت في كل مكان، ليس له أثر: لقد دسسته في مكانٍ معين أعرفه، أثق بذلك».

ينزل أبي على قدميه أمام الكنبة، يُخرج الحقيبة المربعة السوداء، يطلب نظارة القراءة من أعلى التلفزيون، أناولها له يضعها على أذنيه ويخفضها قبل نهاية أنفه، يحرك دوائر الأرقام السرية يضبطها، أسمع تكة فتح القفل، يُفتّش بين الأوراق والمستندات، الأكياس الصغيرة التي تحمل دفاتر توفير، مجلة قديمة جدًّا الله وحده يعرف سبب احتفاظه بها، بعض الأقلام وعلبة ساعة قيّمة كثيرا ما أخبرني أن عقاربها من الذهب الخالص وأنه سيهاديني بها عندما ألتحق بالجامعة، لأنني -بحسب كلامه- ولدٌ طائشٌ لا أعرف قيمة الأشياء. ماذا يعرف هو عني ليقرر إذا كنت أعرف القيمة أم لا، رجل غريب جدًّا.

عم يبحث؟ سألته، متوقعًا عدم الرد أو طلب مضمن بألا أتدخل فيما لا يعنيني، لكن على العكس، أخبرني أنه يبحث عن مفتاح قديم، طلب مني أن أبحث معه تحت المراتب وفوق سطح الدولاب بين الحوائط والكنب، في كل ركن يصلح أن يسقط فيه مفتاح صغير: ميزه لي بقطعة قماش ملفوفة حول ثقب رأسه، أخرجنا كم مفاتيح منثورة هنا وهناك، لا نعرف من أين أتت وفيم تستخدم، أي باب مغلق ينتظرها لتفتحه.

أي شيء يخص هذا المفتاح يا أبي؟

مقبرة عمك عامر.

لماذا؟ هل حدث شيء؟ ما الأمر؟ تدافعت علامات الاستفهام أمامي، لم أستطع تكوين جملة واحدة، استعدتُ صورةَ عمي التي رسمتها النجوم ثلاث ليالٍ متتالية، كنت أبحث عن سيرة عمي في كل جملة أفتحها مع الآخرين، أحوّر كل الطرق لتسير نحوه بلا هدف، الآن سأعرف لِمَ اختصّته النجوم؟ لم ينتبه أبي إلى توقفي عن الكلام والحركة تمامًا، صاح فجأة وكأن حجرًا ضرب رأسه، أغلق حقيبته، طلب منّي أن ألحقه إلى غرفة جدتي بالأعلى، تبعته ألاحق خطوات أقدامه على السلم، أمام الباب يتذكر أنه نسي المفتاح يأمرني بإحضاره من درج الكومودينو يسار سريره، أنزل أحصل عليه وبينما ألتفت يصطدم أصغر أصابع قدمي بحافة السرير المدببة، لا وقت للصراخ والقفز متألمًا، سكتُّ، عاودت الصعود على قدم ونصف حيث أرتكز على جانب قدمي السليم، وجدتُ الباب مفتوحًا -لم يصبر أبي وزقَّ الباب- لم يصعد أحدٌ لتنظيف غرفة الجدة بعد وفاتها منذ أكثر من شهرين، وقف أبي أمام دولاب الجدة ذي الدرفتين، كان خاليًا من ملابسها؛ فصباح اليوم الثالث للعزاء قامت عمّاتي بغسل ملابسها ونشرها وسط أجواء احتفالية كأنها عائدة لترتديها، أخبرتني أمي أن الروح تظل معلقة بقطع الملابس؛ وغسيلها يخلّص

الروح من تعلّقها بالأشياء الدنيوية لتصعد خالصة إلى ربها، ماذا لو أخفيت قطعة ملابس دون غسيل لتظل روح جدتي تتردد عليّ؟ لن تغضب الجدة لفعلي هذا، هي تحب رؤيتي.

قبل أن يحل المساء كنّ قد وزعن ملابسها المغسولة عليهن، وفرش السرير وقطع الستائر والأواني النحاسية، ينقصهن تخليع بلاط الغرفة، لا أعرف من منهن دست المكواة النحاسية بين أشيائها: كثيرًا ما تدفأتُ بها مع جدتي في ليالي الشتاء الباردة؛ حيث تضعها على الموقد وتلتقطها بقطعة قماش لتعزل عن يديها الحرارة تضعها بين أغطية السرير فتوزع الدفء، تركت جدتي الغرفة باردة لا أظن المكواة قادرة على تدفئتها بعد ذلك.

وجد أبي المفتاح في قعر الدرج المخفي لدرفة الدولاب، أمرني أن أتبعه، تركنا الغرفة للظلام والتراب، أغلقت الباب وتبعت أبي: إلى أين يا أبي؟ لن أسأل فسيرة عمي عامر تجرُّني خلفها جرًّا.

ما زال بالطريق أثرُ الأمطار الغزيرة التي استمرت يومين، نختار المدقات لنسير عليها، الشمس تلمع في الطين -عجين السماء والأرض- هل تسترد ماءها؟ توقف أبي أمام منزل ودق الجرس، أخبر الرجل الذي خرج أنه وجد المفتاح وطلب منه أن يصحبه إلى المقابر. بقي لي أقل من شبر ويصل كتفي إلى كتف أبي، لو وقفتُ على أطراف أصابعي صرتُ في طوله، أظن لو أنني طاولته سيعاقبني، كيف تسمح لنفسك أن تطول وتفوق أبيك طولًا؟ كيف تجرؤ! أخشى معه كل شيء، لو رددتُ على حديثه فأنا قليل الأدب وأرد، لو سكتُّ أيضًا عديم الأدب وبارد ولا أعرف كيف أرد، إذا خرجت فأنا متشرد ولم يحسن تربيتي، وإذا بقيت في المنزل فأنا مثل البنات، فقط يريد معاندتي، يعرف ماذا أريد ويمنعني عنه؛ حتى صرت أخبره بعكس ما أريد: فيحدث ما أرجوه، لكن المشكلة الحقيقية أنني لم أعد أعرف إذا كنت أريده فعلًا أم لا!

الطريق إلى المقابر محاط بأراضٍ زراعية على الجانبين، يلعب الهواء بصفوف أعواد البرسيم المتراصة صانعةً مويجات خضراء صغيرة، أحب ملمس صفوفها على يدي خلسة من وراء أبي، في القريب تظهر صفوف قباب المقابر، أنصاف الدوائر هي الضلع الرابع الفوقيّ لمربعات المقابر، دخلنا إلى شارع التُّرب، ألقى أبي تحيته على الأموات وأمرني أن أحيّيهم، حييت السابقين وأخبرتهم -غير واثق- أننا لاحقون. أعرف الطريق إلى مقبرة العائلة، سِرًّا أزور جدتي باستمرار، لا يعرف أبي الكثير عني: فقط ما يود معرفته.

أمام مقبرة عمي عامر، منفردة عن مقابر العائلة: تأكل ربع متر من الشارع الرئيسي.

- «لم تعد مقبرة تليق بشهيد».

قال صاحب أبي مندهًا بوضع المقبرة، تضاعفت الشروخ على الجوانب، السقف المشقق من المؤكد أنه سرّب مياه المطر الأيام الماضية، يجب التدخل وإصلاح المقبرة من الداخل والخارج، وأضاف اقتراحًا بطلائها أو لضمان الجودة والجمال إزالة الطبقة الإسمنتية الضعيفة وإحاطتها بالسيراميك وتكون أول مقبرة في البلد مُسرمكة. يبدو أن الفكرة أعجبت أبي كما لم أتوقع؛ لشهور مضت بعد وفاة جدتي تحاول أمي استبدال بلاط الشقة بالسيراميك ويرفض تمامًا، لا يناقش الأمر، هو يعرف رغبتها الشديدة بهذا الأمر -لذلك فقط- يرفض، وأظن أنه وافق الآن ليغيظها.

تحمّس أبي للأمر، فورًا طلب من صاحبه رقم أحسن مبلّط سيراميك في البلد أخرج تليفونه المحمول -وكان أول من اشترى المحمول في العائلة- وقبل مرور عشر دقائق وصل المبلّط، أقْسمَ أنه أول مرة يُسرمك مقبرة لكن سيفعل ولو مجانًا لأجل المرحوم الشهيد عامر ويكفيه فخرًا. بدأ يمتّر المقبرة طولًا وعرضًا، يحسب القياس الذي سيحتاجه، يقترح ألوانًا وأنواعًا تليق بالشهيد، تلمع عيونه وهو يطلب عدد شكائر الإسمنت وأمتار الرمل اللازمة. اتفق الطرفان على إتمام العمل خلال نهار واحد ليكن الأسبوع القادم مثل اليوم؛ حتى لا يثقلوا على الشهيد، وعرفت أيضًا أنني سأقابل عمي عامر شخصيًّا.

كثيرًا ما تخبرني النجوم بأشياء لا جدوى من ورائها، وأشياء لا تخصني أبدًا، أعرف أن السماء ليست لي وحدي بالتأكيد، لكن وكثيرًا ما تغفل أشياء مهمة ولا تخبرني بها.

عدت متأخرًا من الدرس، سحبتني مباراة كرة قدم وقفت فيها حارس مرمى، دخلت المنزل متلفتًا أدخل غرفتي مسرعًا وأجلس كأني هنا منذ وقتٍ طويل، لا حس لأبي بالمنزل، خرجت لأستكشف الأمر، سألت أمي أخبرتني بتقدم موعد العمل في المقبرة يومين.

أبي الآن عند المقبرة؟

لا أعرف كيف ارتديت الحذاء ودوّرت قدمي في الجريّ، أخشى أن يتم العمل قبل أن أرى عمي، لأيامٍ مضت منيتُ نفسي بلحظة فتح المقبرة ورؤية الجسد الساكن منذ سنين -يقولون إنه حيّ عند ربه لا يموت- هل لم يتحلل جسده فعلًا؟ سأجن حقًّا إذا ما وجدتُ أبي قد أتم العمل في المقبرة ولم أرَ عمي عامر.

العمل ما زال قائمًا، عيناي على باب المقبرة الموارب، وأبي هنا، أي سؤال أو حركة يجب أن تكون بحساب مسبق لكل الفرضيات التي ستغضبه وتحتمل طرده لي من المكان، لا يجب أبدًا أن أفوّت فرصة عظيمة كهذه قد لا تتكرر. أرجوه أن أساعده في العمل ولي عظيم الشرف.

هل أخرجوا الجسد وفرشوا المقبرة بالرمل؟ ماذا سيحدث إذا مددت يدي وفتحت الباب: مد أبي يده بمفصلاتٍ صدئة، أمرني أن أنزل البلد عند محل الحدايد وأشتري له مفصلتين نفس النوع وورقتي صنفرة وعلبة دهان برايمر، أكد عليّ ألا أنسى المسامير وفرشة الدهان، أزعم أن لو كان معي دراجة لما رُحت وعدت أسرع من أقدامي. قبل أن أعود بشارع خففت خطواتي، التقطتُ أنفاسي تابعتُ السير بهدوء في شارع التُّرب، سمعت صوت خطواتٍ تتبعني، التفتُّ لا أحد، عاودتُ السير سمعت الخطوات، أسرع تسرع، أبطئ تبطئ، أتوقف تسكت، ألتفت ألمح ظلًّا يختفي فورًا، أعاود السير تستأنف المتابعة، لا تلحقني ولا تسبقني فقط تتبعني، تبخرت كل آيات القرآن من رأسي، ضممت حقيبة الطلبات إلى صدري، عزمت على ألا ألتفت إلى أن أصل لأبي، هانت قد اقتربت، صوت الخطوات واضح جدًّا لا يخيّل لي، أسمعها كما أسمع ضربات قلبي المتزايدة، عشر خطوات وأصل، واصلتُ المشي دون التفات حتى رأيت أبي، دارت الأرض بي.

(نمت إلى جوار عمي عامر في المقبرة، كانت جنينة صغيرة، رحّب بي -وجهه بشوش رغم الموت- قدم لي الطعام والشراب الذي يصله يوميًّا من الجنة، لم أرَ وأتذوق في حلاوته من قبل، تحدث كثيرًا، لصوته بحة محببة ما زال بملابس الجيش، أخبرني أنه سيدخل بها الجنة، مد يده في صدره وأخرج رصاصة، ما زالت دماؤه رطبة ودافئة ولها رائحة الياسمين، صب كأس ماء على الرصاصة نظّفها جيدًا من الدم، فرد كفي -كانت صغيرة جدًّا بالمقارنة بكفه الكبيرة الخشنة- وضع الرصاصة وطبّق أصابعي عليها).

استيقظتُ في اليوم التالي على صوت أبي يحكي لأمي أنني فقدت الوعي في المقبرة، لكن لا أذكر شيئًا بعد ذلك مما حكاه أنني ساعدته وكأنني أمهر العمال، أنا حملت البوابة وحدي وصنفرتها وطليتها؟ أنا ساويت فرشة الرمل تحت جسد عمي؟ هل رأيت عامر فعلًا؟ قمت أفتش الفراش من حولي، أين الرصاصة؟ دسستُ يدي تحت الوسادة، وجدتُها.

١٢

«قتله القائد».

كلنا تخاذلنا في تنفيذ الأمر، سحب القائد بندقية وهددنا بالقتل، لم يتحرك أحدنا، لم نكن واثقين في أنه قادر على الضرب، لكنه فعلها دون تردد: شدَّ أجزاء البندقية وضرب نحونا عشوائيًّا.

كنا كتيبة ضمن فرقة ١٩ مشاة، بعد أن صدرت الأوامر بالعبور، والأوامر يعرفها القادة أولًا، ويخططها قادة القادة، نحن فقط ننفذ.

الآن أقدر أن أقول لك أين كنا وكيف سارت الأمور بمنتهى الدقة، لكن هناك وقتها كنت تائهًا، سمعنا رجة الطائرات محلقة نحو الشرق، اختبأت الشمس خلف ظهورنا: تضيء لنا الطريق ولا تزعجنا، في الصباح التالي نكون في استقبالها هناك على الجانب الآخر. بعد قصف الطائرات العنيف، ثارت ثائرة المدفعية. بدا الأمر كمعزوفة، كل آلة تلعب منفردة، ثم يجتمع اللحن بتناغم طروب. لا أعرف إلى الآن لِمَ حين أتذكر المشهد تصحبني موسيقى آلات نحاسية وطبول؟ هذا بالتأكيد لم يحدث، لكن رأسي في كل مشهد يضيف موسيقاه الخاصة، من حماس وتوتر وحزن وفرحة انتصار. بدأ الرجال بإنزال القوارب المطاطية لمياه القنال، المياه تحملنا وتدفعنا الريح إلى الشرق كأنهما يعبران معنا. تدربنا على الهجوم سابقًا. وصلنا الجانب الآخر نحمل معدات دفع المياه في الساتر الترابي لنصنع الفتحات، غرّقنا الطين، أصبحت الأرض لينة لزجة تعوق الحركة، تساندنا بعضنا على بعض، صنعنا سلمًّا بشريًّا نصعد ببعض وعلى بعض، مويجات العبور تتدافع نحونا نفتح الطريق للعابرين رجالًا حتى يُتم الرفاق بناء الجسور لعبور الدبابات والمدرعات وآلات الحرب الثقيلة، عندما تتحدث عن ذكرى حرب، لا يمكنك استخدام صيغة المفرد، أنت دائمًا جمع، إلا في حالتي الموت أو النجاة منه.

مرت ساعة ورأيتُ العلم المصري مرفرفًا هناك بالأعلى.

أرفع قدمي ولا أعرف إن كنت سأحطها أم لا، ليست فقط الوجهة شرقًا أم غربًا، بل مجرد ملامسة الأرض لا أثق بها. مرت قبل اليوم نهاراتٌ طويلة ولا يحدث شيء، لكن ساعات قليلة قالوا عنها ستًّا مكنتنا من العبور إلى عمق سيناء، وإن كنّا نحمل سلاحًا خفيفًا في اليوم الأول لكننا فعلناها وصلنا الصحراء بالصحراء.

اليوم الثالث، صدرت الأوامر بمهمة الكتيبة: تحرير جبل المر والسيطرة عليه، يعرف القائد أبعاد الجبل يخبرنا أن طوله ثمانية ونصف كيلومتر وارتفاعه يبلغ مئة وسبعة عشر مترًا، نسير في صفين: كتيبة يمنى وكتيبة يسرى والقائد في مدرعة في المنتصف يمكنك تمييزها بسهولة: تحمل أدوات اللاسلكي والتقاط الإشارة، نتبع المدرعات، الأرض صخرية بها مدقات، يطلقون على الهدف جبل الشيطان، نسمع عن تسليح لا مثيل له، أدوات ودبابات وأسلحة متقدمة، كل هذا وهم بالأعلى، بكل المقاييس الغلبة لهم، لكن القائدَ أخبرنا بالملائكة البيضاء المحاربة في صفوفنا، كان عمك عمران أول المصدقين وأقسم إنه رآها رأي العين، تلاه بعض الجنود وصدّقوا على كلامه، يتطابق الوصف مع أغلب الرواة إلى أن تأكدتُ أني رأيت الملائكة تحارب معنا. غرستْ قدمي في الرمل قرب وصولنا للجبل، اختلف الأمر الآن، كل ثانية في الحرب بحال، تعطلت المركبات، تعرضت الكتيبة اليمنى للحصار، صار كل شيءٍ أسوأ. ارتجل القائد عن مركبته، وجد نفسه بصحبة عشرين رجلًا، يحملون الأسلحة الخفيفة والرشاشات والطبنجات والكثير من الجنون، بالإضافة إلى الأر بي جي المضاد للدبابات ومعه فقط أربع دانات وصائد دبابات عُقر لا يخطئ الهدف، الطيران الإسرائيلي يحوم بالأعلى ولا يضرب؛ قصفة صغيرة بإمكانها تدميرنا: كان التفسير الوحيد لعدم ضربهم أننا في مرمى واحد مع جنودهم، وهم لا يضحّون أبدًا بأفرادهم.

صادفنا بضعة أفراد تائهين من كتيبة أخرى ضمهم القائد إلينا فورًا، الأرض رملية لا تساعدنا على المسير، على مرمى البصر ثلاث عشرة دبابة إسرائيلية يصوِّر لنا غبارها كأنها وحوش قادمة، فقط واحدة قادرة على تسويتنا بالرمال، ولم يكن معنا إلا أربع مقذوفات مضادة للدبابات: يأمر القائد بضرب أول وآخر دبابة، فعلها الرجل أصاب الهدفين بدقة، تعطل الركب، غيّر مساره، نهتف غير مصدقين.

نسمع صوت محركات ولا ضرب نحونا، هذا يعني أنهم في الجهة الأخرى من الجبل، إذن القمة خالية. بقي مئة متر فقط عليها، بعد أن كبّر القائد وهلّل ووعدنا بالنصر المبين، أمرنا بالصعود إلى الجبل، تسمّرنا في أماكننا، سحب القائد جنديًّا من «الآيش» نزع عنه بندقيته وعمّرها، كرر علينا الأمر، لم يُنَفذ، ضَرَبَ نحونا عشوائيًّا، كان من الممكن أن تصيبني رصاصة أو تقتلني، لمحتُ ثلاثة أو أربعة أجساد تسقط، وصراخ إصابة أو إصابتين، لا وقت للتتلفت، نفذنا الأمر فورًا، مَن يقدر وقتها على رده؟ صعدنا قمة الجبل، وجدناه خاليًا من العدو، دخلنا الحصون، وجدنا أسلحة حديثة ومتقدمة، أبوابًا كهربائية ومدافع ذاتية الحركة، دبابات لم تمش بعد على الأرض، أجهزة دقيقة ومتطورة، ملابس داخلية حريمي ورجالي، وأطعمة ومشاريب على كل لون وشكل، كنت جائعًا جدًّا، تلقينا تعليمات من اليوم الأول بعدم الصيام، فطر القادة أمامنا لننهي صيامنا، البعض تمسك بصيامه ورفض الطعام. أكلٌ من الجنة، في أوانٍ تحتفظ بسخونته لفترة طويلة، يوميًّا على الجبهة نسمعهم يدعوننا لطعامهم، يسألوننا هل أكلتم الفول اليوم؟ وانتصر أصحاب جراية الفول والعدس، الخبز اليابس والأرز المعجّن، على أصحاب المَن والسلوى، الزمن غريب حقًّا، الآن أتحدث عن تلك اللحظة بوعي المنتصر، لكن الأمر في المعركة مختلف، أنا جندي في كتيبة تتبع لواء تحت قيادة سلاح ضمن أسلحة الجيش، كلٌّ له مهمة، اكتمال هذه المهمات من عدمه فردي لكنّ النتائج عامة، أنت على أرض المعركة لست مدركًا لكل الأمور فقط تهتم إذا كنت على قيد الحياة أم لا، فقط تقف عند الحدث الحالي، اللحظة هي أهم ما تملك، قد تستغرق أعوامًا من التفسير.

بلّغ قائد العملية القادة بتحرير جبل المر.

- عملها الصعيدي..

ليست النهاية، الإبقاء على مثل هذه النقطة الحصينة أمرٌ عسير، فمنذ وقوفنا على الجبل وطيران العدو لا يكف عن المناورة، وتسديد الضربات، لا فرصة لإنشاء خنادق والاحتماء بها، الليل وقتٌ مناسبٌ للعمل، لكن العدو الجريح ثائر، يستعيد سيادته الجوية، لا يهدأ ليلًا، كلما هممنا بالحفر أحبط محاولاتنا.

الليل على الجبهة محاولةٌ للتملص من الجنون، هذه الليلة رأيتُ ملايين العيون مرشوقة بالسماء، تدور في كل الاتجاهات، لها وميض أخضر خافت، القمر في كامل استدارته وقربه من الأرض، لو مددت يدي أطوله، يكشفنا دون قصد. الجو منعش يحمل نسمات خريفية طازجة لها رائحة البحر، وتحمل أيضًا رائحة الدم. تهامسنا أنا وبعض الرفاق بشأن قتلانا على منحدر الجبل، هذه اللحظة كلنا سواء في الخوف، القائد نفسه كان يسدد ضربات نحو خوفه فينا.

هل سيدخلون الجنة شهداءً أم لا؟ لم سجنهم القائد في لحظة خوفهم للأبد؟ سيُبعث المرء على ما مات عليه، هذه اللحظة من التردد لا يمكن أن تُفسَر بالجُبن والتخاذل، لو أن الله مكان القائد لعذرهم.

في الليل يتسلل بعض البدو بإمدادات من الطعام والمياه، يسحبون الشهداء والجرحى.

ماذا لو أخرجنا دبابة إسرائيلية على مقدمة الجبل؟

لساعاتٍ ظن العدو أنه استعاد السيطرة على الجبل، قمنا بحفر الخنادق تمكنّا من الاختباء والاحتماء من تطاير الشظايا.

لأيامٍ لا عدد لها، مصنّمون على الجبل، نتناوب على النوم واليقظة ليلًا، كل ليلة تمر كأنها الأخيرة؛ أنتظر قدومَ الشمس كل صباح فأطمئن.

عرفنا أن السويس محاصرة، استطاعت فرقة إسرائيلية كاملة المرور من ثغرة في منطقة الدفرسوار بقناة السويس وحصارها، صار الوضع كارثيًّا، وكأننا مكنّا العدو مما يريد، لو أحكم قبضته على المدينة، سيبقى أمامه ساعتان فقط على القاهرة، نحن هنا وهم هناك (سيب وأنا اسيب).

أيام تجر أيامًا والإمدادات شبه مقطوعة، فقط بعض البدو يطعموننا البسبوسة بالسمن البلدي، المياه على وشك الانتهاء، أجسادنا شديدة الاتساخ.

أحد الضباط في الفرقة السابعة مشاة، فك قطبان السكة الحديد الواصلة بين القنطرة وقناة السويس، حريق الحديد يكفي يومًا كاملًا، وضع برميل مياه مالحة من القنال على النار وكثف البخار في إناء مقابل، نقلنا الفكرة وبدأنا بالاكتفاء من المياه.

في الليل نتسامر ونضحك، نتدفأ بالحكايات، الشتاء يزحف، والبرد في الصحراء ثقيل، الوقود في سبيله للنفاد، أصدر القائد أمرًا حاسمًا من يستخدم الوقود للتدفئة يُقتل فورًا، تجمدت أسلحتنا من قلة الاستخدام، في موقف لا وجه له ولا قفا، كيف بدأنا الهجوم وإلى أين صرنا، انتقلت المعركة إلى هناك.

اغتسلنا في مياه المطر، لحسن الحظ أنها أمطرت نهارًا، خلعنا ملابسنا، واستقبلنا القطرات تزيل عنا الوسخ والتعب.

الانتظار والمزيد من الانتظار، الوقت يلتهمنا بجنون. معنا جندي عَمِلَ صائغًا في خان الخليلي، أحضرنا له حطام طائرة فانتوم وصنع لنا ميداليات للمفاتيح للذكرى، فتشنا عن بقايا دانات المدافع وتهادينا بها، حفر لنا عليها الأسماء والتواريخ وبعض الذكريات. أقمنا معرضًا صغيرًا للغنائم التي استولينا عليها من العدو. أقمنا مسابقات الجري ولعبنا الكرة الشراب، مع التمارين اليومية حتى لا نصدأ.

كل هذا في حصارنا اللعين، يبدو كالأبد، كل الاحتمالات أمامنا، قتل، أسر، سنُنسى هنا إلى يوم القيامة! مر العيد الصغير والكبير، شارف العام على الانتهاء، نطبق على أسباب البقاء ووسائل الدفاع. نطبق على الأرض بقوة، هنا لا أذكر أي موسيقى مصاحبة للمشهد، تعرف مؤشر نبض المريض في غرفة العمليات حين يتوقف: هنا تتوقف النوتة الموسيقية برأسي عن العزف. فقط صوت عزف الريح في الرمال؛ موسيقى خاصة تحيطنا وقت الانتظار: صفحة بيضاء لا حروف بها ولا أسطر، لا شيء حولك يحرك الفراغ.

أفكر في الشهداء، قد حسموا أمورهم، لا يشغلهم الآن من سينتصر، أسماؤهم ووجوههم تتشابه.

- لكنك لا تشبه عمك عمران، أذكر عيونه الزرقاء، وشهب شعره وكأنه ليس مصريًّا.

- لم يكن عمي بهذه الصفات، «عامر التهامي عزيز».

أخرجت صورة عمي من التليفون، حدق الرجل، قرّب حاجبيه من بعضهما.

- سمعت عمك جاد الكريم يسأل عن تهامي عمران! هذا الوجه بالصورة آلفه، رأيته من قبل، لكن لا أتذكر تفاصيل. ذكرني باسم بلدكم؟

- كوم النور مركز ميت غمر.

- نعم، أذكره، كان معنا من نفس بلدكم جندي اسمه على ما أذكر شاهين الأعور، أظنهم أصدقاء، عمك أنقذه من أسر محقق.

١٣

في الصباح تأخرتْ منى على غير العادة، وصلتْ بعد انتهاء البرنامج الإذاعيّ وأثناء تحية العلم، تحاشتْ النظر إليّ متعمدة، ألمح تشبيكة أصابعها، تفكهما، تدوّر الدبلة في بنصرها ترفعها إلى العقلة العليا ثم تعيدها في مكانها، صعدتْ قبيل انتهاء الطابور وتدافع الأولاد على السلم.

أعدتُ الميكروفون إلى غرفتي، صعدت إلى غرفة المدير كان يوم إشرافي: أحصر الغياب بين المدرسين، أوّزع الحصص الاحتياطي، أمر على الأدوار، أتمم على الفصول بين الفترات، آمر الأولاد بالنزول إلى الملعب أثناء الفسحة، أمنع قدر الإمكان التدافع والمشاحنات بين الأولاد.

كلما لمحت العمارة أمام المدرسة حين أمرُّ بين الفصول، أرى سقوط الطفل أمامي، أسمع صوت ارتطام عظامه اللينة بالأرض، ثوانٍ لا يُعرف ماذا رأى أو سمع أي ألم أصابه، هل مات فورًا أم ظل ينزف ويتألم حتى تبين الناس أمره؟ لمحت المرأة الستينية النحيلة بالشرفة، دققت النظر، الشرفة مغلقة، إنها عادتي السيئة بالنظر إلى الشمس لفترة والانتقال إلى الأشياء هيأت لي وقوفها هناك. ظلّت مذهولة لثوانٍ عندما عرفت بالقرابة بيني وبين عامر، تمتمت ببضع كلمات لم أفهم معناها بالكاد تبينتها (هو اللي باعتكَ أكيد) لم تكررها أبدًا عندما طالبتها بالتوضيح، ارتبكت ونقلت توترها لي، طلبت الخروج وغادرت مسرعًا.

دخلت غرفة المدير حيث الكمبيوتر المُوَصل بكاميرات المراقبة، راجعتُ سجل التخزين للأيام التالية للحادث في ذات موعده؛ تقف الستينية النحيلة بالمكان نفسه تنظر في كل الاتجاهات، تروح وتجيء على غير هدى كأنها تبحث عن شيء. أعيد الجهاز إلى وضعه، أرن جرس الحصة وأذهب لأتمم على الفصول.

أتلكأ أمام فصلها، تغلق عليها الباب أثناء الحصة، أسمع صوتها من الطرقة، حاد كمطرقة، ليّن كعجين، مبطن بالشامواه، سمعتها أكثر من مرة تلقي قصائد شعر وهي تعد الفتيات لمسابقة الإلقاء، كانت تفضّل أمل دنقل ومحمود درويش، تحفظ القصائد، تحرك شفتيها مع البنت وهي تلقي القصيدة في الطابور، لو تعرف كم اشتهيت شفتيها المضمومتين وهي تردد: «فأنت الآن حُرٌّ وحرٌّ وحر»، قُبلة وقُبلة وقُبلة، أجر لسانك المسجون في نطق حرف الراء خلف فكك الفوقية مشددةَ عليها.

هدأ صوت منى ثم غاب، سمعت ضجة وصرخات مكتومة داخل الفصل، علَت الصرخات مستغيثة، اقتربت أكثر من الباب أسترق السمع، ترددت قبل أن أفتح الباب لكن بنتًا فعلتْ من الداخل سألتها عن الضجة، أخبرتني.

- «الأبلة منى مغمى عليها».

لم أتبين منى بين كومة الفتيات حولها، بعضهن يكتمن الدموع وأخريات يكتمن الضحك، طلبت منهن ترك مسافة كي تستطيع التنفس، أمرتهن بتسنيدها ورفعها عن الأرض لتجلس إلى المقعد، اتصلت بالمدير أخبرته بما حدث، ليرسل الزائرة الصحية أو زميلة تساعدها -كفيلٌ أنا بحملك يا منى لولا البنات- أود الآن لو أعصرك، إحدى الفتيات فكّت عنها الطرحة، استدرتُ أشدُّ عيوني عنها شدًّا، لمحت بقعة حمراء على البلاط، دققتُ في لمعتها شككت كونها دمًا، التفتُّ إلى منى لأتحقق من ملابسها، وجدتُها غارقة، لم أقوَ على الانتظار دفعت عنها الفتيات كانت مرتخية جدًّا مما جعلها أثقل، أتت زميلةٌ على صوت الضجة طلبتُ منها تساعدني لنسندها وننزل، اتصلتُ بالإسعاف هذه المرة فعلًا، وتركتها.

قبل أن تغادر السيارة بوابة المدرسة، بدأ المحللون الحوقلة والمصمصة على حالها، مؤكدين أنه حتمًا إجهاض.

في الليل بحثت عنها كثيرًا، لم تظهر، أرى فيديو ولا تظهر، أقرأ منشورًا دون تركيز ولا تظهر، أُقلِّب في صور الأصدقاء والأعداء ولا تظهر، لم يبقَ سوى ساعتين على موعد رنين المنبه الصباحي، هل أترك لها

رسالة؟ لا، لا أثق بيد من ستقع، لا أملك سوى الانتظار.

طالت الغيبة يا منى ولا إشارة أطمئن بها، كلما أغمضتُ عيني أبصرتُ دمًا مراقًا على البلاط، مشطتُّ المكتبة بحثًا عن واحة الغروب حتى وجدتها يا منى، كانت في درج الكوميدينو، أعاود فتح الرسائل علّها تظهر، سأترك الهاتف إلى جواري وأريح جسدي قليلًا.

١٤

رأيتُ منى تشرب من قنينة صفراء، يسقط من فمها سائلٌ أصفر، شعرها البني قصيرٌ كصبي ومهوّش، ترفع القنينة ولا تبالي بتسارع تساقط القطرات على ذقنها ورقبتها وصدرها، ظلت تشرب والسائل الأصفر لا ينضب من القنينة، يتضاعف يتدافع كشلالٍ عنيف ضارٍ، حاولت الاقتراب منها لكن اصطدمت بلوحٍ زجاجيّ يحيطها من كل اتجاه له قوة طرد دفعتني بعيدًا، غَرّق السائل ملابسها الخفيفة البيضاء بالكَامل، كوّن بحيرة صغيرة تحتها يرتفع منسوبها شيئًا فشيئًا، لاحظتُ انتفاخ بطنها تدريجيًّا، تزحف المياه حتى وصلت إلى رقبتها، صرختُ فيها كي تنتبه، هل كانت حواسها معطلّة؟ غرقتْ بالكامل في السائل الأصفر،لمحتها من خلاله على وضعها كأنها تمثال، هل لأني أحلم عندما فكرت في آلة حادة وجدتها أمامي؟ أُدرك بشكلٍ ما أنني في حلم، هل هذا يمنح قدراتي طاقات أكبر؟ حملتُ المطرقة الحديدية واقتربت منها، ضربتُ الزجاج من حولها ضربات قوية متتالية أحدثت شقوقًا سرعان ما قاومت والتأمت، بالداخل لمحتُ منى تتحرك كأنها انتبهت فجأة لما حولها، كانت غارقة تمامًا، تضاعفت ضبابية السائل الأصفر، بالكاد ألمح تحركاتها العنيفة تعافر الغرق، عاودتُ الطرق بقوةٍ وسرعة أكبر، أرى يدها تخبط السائل، تقترب من الزجاج تحاول الرؤية يمنعها الضباب الأصفر. لم تعد ضرباتي تحدث شقوقًا، كأنها تقوّي الزجاج، تقلّ حركة منى بالداخل، هل استسلمت؟ أرى لونًا أحمر يتسرب كخيط دخان بالسائل، تنزف، أرى شبحًا صغيرًا إلى جوارها لا أميّزه. عامت إلى سقف المربع الزجاجي حاولت دفعه لأعلى، رفست بقدميها، تضاعف اختلاط الأحمر بالأصفر العكر، غامت الرؤية أكثر، بحثتُ في الزجاج عن مخرج، أُحدث صريرًا بنبش أظفاري، لان الزجاج في يدي، غرفتُ منه كأنه رمال، وصلت إلى المياه، كانت لزجة ثقيلة، تنزل على جانب المربع، استمررتُ في الغرف أوّسع الثقب بدأ منسوب السائل يقل ودفعه للثقب يضغط، تنفست منى بقوة كادت تغرق، أخرجتُ منى من الثقب، كأنها تُولد من رحم زجاجي تحيطها السوائل، كانت مشققة تنزف من كل الشقوق، لاحظت سقوط جسم من مياه الثقب، كان وليدًا ميتًا لم يكتمل، لامسته ذاب في يدي كمرهم، جرّبت دهن شق منها التأم على الفور، واصلت في السحب من الجسد الصغير وتسديد كل الشقوق، ذاب الوليد بالكامل مع آخر شق في جسد منى.

قمتُ فزعًا، تحسستُ الأغطية من حولي وتحت الوسادة بحثًا عن الهاتف، وجدته، لا رسائل إلى الآن، لن أذهب إلى المدرسة اليوم، سأصحب الكاميرا في جولة تصوير نهارية، بلا هدف محدد أو وجهة معينة.

أذكر أول مرة أمسكت فيها كاميرا، في الصف الأول الثانوي، كنتُ في رحلة مدرسية، طلب منّي مدّرس الرسم التقاط صورة، سألته عن زر التشغيل، ضبطتُ الوضعية والتقطتُ الصورة، لا أنسى لمعة عينيه وهو يرى الصورة، سألني إن كان لديّ كاميرا أو احترفت التصوير من قبل؟ أبدى إعجابًا كبيرًا باللقطة، يتكرر الأمر مع كل صورة ألتقطها له أو للأماكن، ترك لي الكاميرا طوال الوقت ألتقط ما يحلو لي، عرفت وظائف كل الأزرار، كيف أستعيد الصور وأمررها، أدقق في «الكادر» الذي يعجب المدرس وأتأمل ما الجميل فيه تحديدًا، أحاول تكراره، أضبط الأجساد مع الأماكن، الألوان والأشكال، الظل والنور، إلى الآن أحتفظ بالصور التي التقطتها ذاك اليوم، أتأمل هذه العفوية التي بدت في كل الصور، الطاقة الجاذبة مهما أعدت تقليب المشاهد لا تمل، بها نعومة فاتنة لم أقصدها، ولا أعرف كيف أصل إليها مهما حاولت أو تعلمت.

أحب اختزان اللحظة وتدشينها في لقطة، أقتطعها من كل الحدود، هذا الفضاء اللامحدود كيف أمنحه بَراحه في لقطة محددة، كيف أجعله ممتدًّا ولانهائيًّا كما هو. هذا ما يفرّق مصورًا عن آخر، المنحة التي تضيفها اللقطة للمشهد، هل تضيف له، أم مجرد مجتزأ عنه، اتصال بينه وبين الأصل يمنحه وقع ما في المشهد، تلعب مع الإحساس بالمشهد ليس فقط حدوده، هذا الحقل الممتد كلما ابتعدت عنه وتعاليت عليه حصلت على أكبر اتساع ممكن ومنح الصورة اتساعًا إضافيًّا، كيف تلتقط سعفة وتمنحك الإحساس الكامل بالنخلة: طولها، لونها، رمية الظل على الأرض، الصورة ليست فقط ما بالكادر، بل الناقص عنه ما يجعلك تكمل المشهد برأسك دون إزعاج.

رأيت منى في كل المشاهد التي التقطتها اليوم، في الحقول، الجداول، أشجار التوت والجميز، بين خيوط أشعة الشمس، خلف الساقية المتوقفة عن الدوران منذ عمر، هنا عند الترعة، أسمع صوتها

تنادي، هنا أسفل المياه، بعيدًا عن المجاز، صوتها واضح، صورتها على السطح، دعوة صريحة للنزول إلى الترعة. هناك رصاصة عائمة على سطح الترعة!

تعرفين يا منى: لو قُدّر لي وأطلقت عنوانًا لتاريخ بلدنا، لأسميته تاريخ الماء. الخير المحيط بنا من النيل إلى البحر المتوسط والبحر الأحمر حتى قناة السويس، والشر الذي لحق بنا من حروب واستعمار وبلاء كان أيضًا بسبب الماء هذا الموقع الفريد العبقري، جملة متقنة في كتاب العالم الواسع. وتاريخ الخرافات لدينا مرتبط بالماء، هي مسكن الجنيّات والعوالم الخفية عنّا، حكايات الجدة عن الترع و ساكنيها، والجدة تحكي الحكاية بالطريقة التي تشبهها.

أعرف أنك تمليّن من حكايات الماضي، تتساءلين ما الفائدة من حكاية حدثت منذ مئة عام، تتشابه الحكايات يا منى أعرف أنها أبدًا لا تتطابق، لكني أؤمن أنها الحجر الذي نقف عليه لنعيش الحاضر ونتطلع إلى المستقبل.

هل أحكي لكِ ما روته عن والد جدي التهامي، الجد الأكبر عزيز، سأروي لكِ حتى تعودي، عن عزيز وصلّوحة..

ا ٥

صلّوحة الصغيرة الصبية الحلوة، وهو التهامي طفلها الوحيد سهل التخلّي عنه؛ كما تخلّى أبوه عنه ليلة سقوطه في الرحم: يومها استيقظت صلّوحة لتجد زوجها لا يحرك ساكنًا. كادت تُجن؛ فقد كان معها بالفراش منذ ساعات قليلة. لم تترك سيدة في العزاء إلا وأخبرتها أن عزيز كان معها ليلة أمس بالفراش وأنها لم تستحم بعد من معاشرته. لم تعرف النساء هل يضحكن خجلًا أم يتمسكن بوقار العزاء. ساعة على الأكثر وكل البلد عرفت أن عزيز كان بالفراش ليلة وفاته مع زوجته صلّوحة. صار من العبث أن يحاول أشقاؤه تقسيم التركة عليهم، قبل أن تتضح رؤية ثمار تلك الليلة. مضى شهر وبانت البشائر، صلّوحة حامل.

تزوجها عزيز بعد ثلاث نساء لم ينجبن له وريثًا يحمل اسمه. كان يعرف أن بذوره صالحة؛ لكن الأرض بور. يمر العمر تموت الأولى فيتزوج الثانية، تموت الثانية فيأتي بالثالثة، لا يجمع بين سيدتين. ماتت الثالثة أشار عليه صديقه بالزواج من بكرٍ صغيرة، هو الستيني، لم تبق شعرة سوداء برأسه. أي صغيرة تلك التي ترضى بكهلٍ مثلي؟ أجابه الصديق أن العروس موجودة بانتظارك، إنها صلّوحة ابنة شقيقي المتوفى التي تعيش عندي.

تلمع عيونك يا عزيز ولم لا وهي الصغيرة الحلوة، تعيد إليك شبابك الفائت، لكنها صغيرة قد لا توافق، من المحتمل أن يجبرها عمها على الزواج بك؛ ليتخلص من همها. ولمَ لا؟ قد تفلح فيما فشلت فيه الثلاث السابقات، وتنجب لك الوريث.

وافق عزيز على عرض صديقه الحاج أحمد، لكنه اشترط أن يحصل على موافقة الصبية بنفسه؛ حتى لا يغصبوها عليه.

لم تفهم صلّوحة ماذا يعني أن تتزوج من الحاج عزيز حتى توافق أو ترفض. كان همّها العودة إلى لعبة الحجلة مع بنات الشارع. كانت تهاب عمها أحمد؛ لم تقدر على إظهار عدم الفهم، لكن عزيز عرف أن البنت لا تدرك؛ فثمارها لم تدفع ثوبها بعد. أسلمت الصغيرة الأمر لعمها الحاج أحمد. تبادل الرجلان نظرات الفهم، التآمر على الصبية الصغيرة. لم يصل هلال السماء الشاهد إلى بدر إلا ووصلت صلّوحة عروسًا في بيت عزيز.

صغيرة تائهة في فستان الزفاف الأبيض اللامع، أخبرتها زوجة عمها كم هي محظوظة؛ ستعيش في بيتٍ طويل عريض لا يشاركها أحد، بعد أن كان الفتيات الخمس ينمن تحت السرير وينام فوقه الذكور.

تركها الأهل وحدها مع العريس، بدأت بالتلفت بفضولٍ طفوليّ نحو المقاعد الأرابيسك، تتلمس الأخشاب المعشّقة وتحاول تدّوير الكرات: تلمع عيناها بفرح كلما دارت قطعة تحاول مع الأخرى، البعض يدور معها والبعض يعاند. يراقبها الحاج عزيز بحذر، ردته ابتسامتها البريئة أعوامًا لا يعرف عددها -لو أنجب مبكرًا لكانت في عمر حفيدته- كانت تتحاشى النظر نحوه، وكان يخمشها بعينيه. لا يعرف من أي طبقة بدأ يغرف في صوته، بدت حنونة كما لم تكن قط، أخبرها بلطفٍ أنها قد زينت الدار بنورها، وأن كل شيءٍ هنا صار لها، هي هنا سيدة المنزل، لم ترفع صلّوحة وجهها وهي تسمع الحديث، صارت تدوِّر كرات الأرابيسك على نحوٍ أسرع وعلا صوت تنفسها بشكلٍ ملحوظ، التهب وجهها كأنها جلست إلى الفرن للتو، سألها عزيز إن كان لديها أي موانع أو متاعب حريمي، لم تفهم صلّوحة مقصده، سألها عن الحيض، عرف عزيز أنها لم تحض.

لم تنضج بعد: إهمد يا عزيز، توقف، لا تكمل، هذه طفلة لا تزال.

عندما تحكي صلّوحة عن تلك الفترة تقتطعها اقتطاعًا من الذاكرة، حياتها مع عزيز قبل الحيض، فتاة مدللة وهب نفسه لتعليمها وتربيتها من جديد لتليق به، يُنضج ثمرته كما ينبغي له، بدأ بإطعامها، صنوفًا شتى لم تدرِ عنها من قبل، كل أنواع اللحوم والطيور لا تنقطع، أمرها بغلي الحلبة وشربها بالليل والنهار،

جرار صغيرة وكبيرة لألوان مختلفة من العسل النحل تأتيه خصيصًا، كانت تخشى احمرار وجهه وقتما تتذوق العسل من فوق إصبعه، كان يغمض عينيه ويأمرها بأن تتركه حالًا..

خصص لها ساعتين بعد صلاة العصر يوميًّا: يعلمها القراءة والكتابة، ويردد قصار السور القرآنية لتحفيظها. منحها ما في قلبه من أبوة مسيطرًا على الرجل بداخله، تمر الأيام وتبدأ حبتا ترمس تدفعان ثوبها على استحياء.

علمها فقه الزواج وأصوله، حقوق الرجل وواجباته، كانت لينة مطيعة سهلة، بدأ يعرف لغة جديدة للجسد، كل شيءٍ فيها يحفزه على قضم ثمارها والدخول إلى الجسد الصغير، لكنه تراجع، أقسم على نفسه ألا يفعل إلا في الوقت المناسب، كانت تطيعه، تستكشف جسدها الذي يمتلكه، أحبت القراءة والكتابة، تحفظ الآيات وتشرب الأحكام تطيع ولا ترد له أمرًا، تعرف ما له من حقوق وما يمنعه عنها. يسرّ في أذنها أبيات شعرٍ لا سبيل لها لفهمها، لكن جسدها يستجيب ويشتعل. منعها من الخروج أو استقبال أحد من الأهل، أمرها محذرًا بكتم السر بينهما. نذرها لنفسه وانتظرها بكل ما يملك من صبر.

في الليل تشاركه فراشه ينام على طرف السرير موليها ظهره إلى أن يسمع انتظام نفسها، يلتفت، يمرر أنامله على الجسد الهش، لو طبّقه بين أصابعه لتكسر، يقيس الانحناءات ويحسب متى تكتمل الاستدارات، صارت حبتا الترمس عنبًا ثم فراولة صغيرة، متى ستصبح برتقالًا؟ يقترب من دفء جسدها البكر، يستنشق عطره، يدس أنفه في الجلد المشدود، يقبل عنقها من الخلف، يغيب، يستعين بالله وملائكته وكتبه ورسله وجنوده الخوافي والمعلنين على نفسه، هذا اللهب المحموم في جسده العفيّ، لو لامسها لشقها نصفين.

يغمض عينيه تظهر له صلوحة بكامل ثمارها ناضجة، يعرف أنها إحداهن -حفظنا الله- تأتيه في صورة صلوحة لتغويه، لم تكن المحاولة الأولى، لم يقوَ على المقاومة سيطفئ النار ولو بالنار.

في الصباح أمر صلّوحة بإعداد ماء ساخن ليستحم، طلب منها أن تساعده في نزع ملابسه عنه، شرح لها كيف يختلف جسد الرجل عن المرأة، خلعت عنه ملابسه الخارجية، ترددت قبل أن يحسم أمرها كي تستمر، أكملتْ عريه، سألها عن الفرق بينهما، أشاحت وجهها وأغمضت عينيها، احتضنها مردِّدًا أنها ملكه وهو سيدها، شعرت بكل جسده، لم تقاوم وهو يخلع عنها ملابسها بالكامل، فتحت عينيها كما أمر، أخبرها أن آدم وحواء نزلا الأرض عراة، لأول مرة يتحسس جسدها وهي يقظة، أخبرها أنه لن يصيبها بسوء، فقط يمرنها على الحياة بين الرجل وزوجه، ضاعفت حرارة المياه ونعومة الصابون من سخونة الجسدين، يتمنى أن ينهي خرّاط البنات عمله بسرعة في جسدها الطفل. خافت صلّوحة عندما رأت ماءه المراق، علّمها عزيز كل شيء عن الزواج، كل الكلمات القبيحة والشتائم والأصوات، حكى لها عن زيجاته الثلاث السابقة، ماذا كان يحب في كل سيدة، كان يلمح غيرتها فيبالغ، عرفت المقارنة، تمنت ما ينقصها لتختبر كل ما يحكي عنه.

كبرت حبتا الفراولة، اقتربتا من حبتي يوسفي صغيرة، شاركها عزيز اللعب، رسم خطوط الحجلة وقفز معها، يحب رؤية اهتزاز النهدين عند القفز، يحب ضحكها عندما تفوز فيخسر. علمته (الجبّة) كيف تتحكم أصابعها بالأحجار، كيف ترمي وتقيس المسافة، تقذف حجرًا بالأعلى بينما تلتقط الآخر من على الأرض وتمسك بما رمت قبل أن يسقط، حاول كثيرًا أن يفعل ولم يقدر.

استيقظ عزيز بعد منتصف الليل على صوت تأوه صلّوحة، قام إليها، وجدها تفرغ ما في جوفها من سوائل، عرق غزير يغسل وجهها، تحسس جبهتها لاحظ ارتفاع درجة حرارتها. حملها بين يديه بعد أن جفف عرقها بأكمامه، أراحها على السرير، دثرها بكل الأغطية، هددها حتى خفّت رعشة جسدها، أعد لها كوبًا من الحلبة، ضعيفة، هشّة، أخبرته صلّوحة أنها تملك الآن رفاهية الألم، تذكر أنها أول مرّة في حياتها الصغيرة تبوح بوجع، لكنها الآن بين يديه، لها أن تتدلل. قدّم لها عزيز الحلبة دافئة محلاة بالعسل الأسود، يسندها برفقٍ ويسقيها بيده.

تركها نائمة، ذبح لها ديكًا صغيرًا، أعدّ المياه المغلية ليغطسه وينتف الريش وينزع أحشاءه، حشا بين الجلد والصدر خليط الأرز والنعناع والبصل، وجهزه للسلق وإعداد أفضل طبق مرق من أجل صلّوحة.

أحس عزيز بدفء خيالٍ إلى جانبه، لم يلتفت، عرف أنها «منهم» سيرفض هذه المرّة، لا يهم غضبها، هانت: صلّوحة على مشارف الاكتمال. تمتم ببضع آيات القرآن، والأذكار المحصِّنة، لفحته حرارة قاسية، استمر في الذكر حتى بردت تمامًا.

سمع صراخ صلوحة، دخان كثيف من غرفتها، هرول إليها، النار حولها من كل اتجاه، تشب وتمنعه كلما حاول الدخول إليها، جرى أحضر إناء مياه يرشه ويتمتم بالذكر، همدت النار، لكن نوبة بكاء مرتفعة أصابت صلّوحة، كانت ترجف دامعة، طمأنها عزيز ووعدها -وهو ينظر إلى الغرفة التي لم تتأثر بالحريق- أن الأمر لن يتكرر.

قدم لها الطعام، قرأ القرآن على إناء مياه تجرعت منه حتى امتلأتْ ورشّ الباقي على جسدها، كذلك حصّن زجاجة زيت زيتون ودهن لها. لم يمر الليل إلا وقطرات الدماء بدأت في التدفق من صلّوحة، في البداية شعرت أنها قطرات بول تنز منها من الخوف. لمح عزيز البقعة الحمراء على جلباب صلوحة. أضاء وجه عزيز بتلك البشرى، أيام قليلة وينال ما يريد.

في الظهيرة سمع عزيز طرقًا مُفزعًا على الباب، خرج مسرعًا، وجد رجلًا قريبه أخبره أن ابنه سقط في الترعة ولم يعثروا له على أثر.

الولد الصغير رأى آنية نحاسية لامعة بغطائها في نصف الترعة، أخبر رفاقه أنه نازل لإحضارها، حذروه من أنها قد تكون الجنية، وهل يعقل أن تسير آنية بغطائها على المياه! لكنه أصر ونزل، يقول الصِّبية إنه مطرح ما نزل سُحب، لم يقب ويغطس قبل الغرق، أخبره أبوه أنهم مشّطوا الترعة شبرًا شبرًا بشباك الصيادين ولا فائدة. أطلق عزيز حوقلاته وأذكاره، ارتدى عباءته والتقط عصاه وخرج مع الرجل قاصدًا الترعة حيث سقط الصبيّ.

عرف عزيز الجنيّة التي شدّت الولد، كانت رسالة تحذيرية له، تثأر لرفضه لها، وتستعرض قوتها وما تقدر عليه.

- «سأحرقكِ».

وقف عزيز على شط الترعة، لم تخفتْ شمس الشتاء إلى العصر. يرسل إليها شوظًا من نار أذكاره، اختار آياتٍ من القرآن وكررها، إلى جواره وقف الأب باكيًا وحوله تجمهر من رجال البلد، النساء على مسافة لكن الصراخ يصل واضحًا، ساعات قليلة وطفا الولد مكان سقوطه بالضبط على سطح المياه دون مزيدٍ من البحث على طول الترعة.

لم ينتظر عزيز حتى يحضر الجنازة، عاد إلى بيته توًّا مذعورًا، ارتكن إلى المقعد الأرابيسك وجلس، ارتعش وتدفق العرق على جبينه غزيرًا، تسند إلى الجدران حتى غرفة نومه، اطمئن على صلّوحة، أراح جنبه إلى جوارها ونام.

استيقظت صلّوحة على ألم كوخز الإبر، كان وخزًا حقيقًا في ذراعها اليسرى، وجدت نفسها عارية تمامًا، دم الحيض يبقع الفراش، عزيز إلى جوارها؛ استنجدت به، بُهتت عندما رأت الإبرة في يده يدبها في ذراعها. تضاعف الألم عندما رأت المتسبب به! هالتها نقاط الدم المتساقطة من ذراعها، انتبهت إلى أنه مسبل العينين كأنه مُنوَّم، هزته صلّوحة كي ينتبه، صرخت به مستعطفة والألم يتضاعف، يغرس الإبرة بلا وعي، كأن أحدًا ممسكًا بذراعه ويملي عليه إرادته.

زقته صلّوحة بعنف، وهي تردد بعض أذكاره، انتبه عزيز للأمر اندهش لمنظر ذراع صلّوحة، نظر للإبرة في يده كمن لا يفهم، بكت صلّوحة ترقرق صوتها في دفعات مشحونة من الألم والخوف وبرد العري، سألها عزيز عن الأمر ومن فعل ذلك بذراعها وملابسها الممزقة حولها؟ أحضر عزيز البن وكبسه على ذراعها، احتضنها مهدهدًا عليها، تتدرج شهقات البكاء ورجفاتها ببطء، تقل حتى تسكن تمامًا بين ذراعيه، يقبل جبينها، يمسّد ظهرها يحرك يده على الفقرات البارزة يمازحها بأنه يتمكن من عدّ ضلوعها وفقرات ظهرها واحدة تلو الأخرى، دثرها بالأغطية وقام بإحضار ملابسها، ملأ آنية بالمياه ونظف جرحها بمنديلٍ

أبيض نظيف، سمّع الألم بكتفها اليسرى، قبّل عزيز أثر الوخزات الحمراء، بللها بلسانه، يرشف الألم عنها، شعرتْ بدفقة دمٍ بين فخذيها، يسيل الدم على الفراش، تعتدل، يساعدها عزيز في ارتداء ملابسها، نزعت الفَرشة الملطخة بالدم، وفرشت أخرى نظيفة.

أشعلت صلّوحة المبخرة بالدار كما أمرها عزيز، جلس قرب فتحة شباك حيث ضوء الشمس يُسقط نوره على المصحف المشرع فوق مقرأةٍ خشبية بدأ يقرأ، لاحظت صلّوحة انتفاض جسده عند بعض الآيات، يرتجف، يجبر لسانه على المواصلة ويتعثر، يدخل في نوبات سعال حادة كأن روحه تستعد للصعود، تجري صلّوحة تناوله القلّة، يردّها بإشارة حاسمة غاضبة، تخاف الشرر المتطاير من عينيه، انكمشت وابتعدت عقب صيحته الشيطانية المنطلقة من جوفه، ليس صوته ولا نبرته، ينطق بكلمات من عالم آخر لا سبيل لها بفهمها.

فرت إلى غرفتها، أغلقت الباب، دست نفسها أسفل السرير، تسد أذنيها عن الصوت المفزع وتبكي. يفيق عزيز من نوبته لا يذكر عن فعله شيئًا، يعرف السبب، يقاوم، يُطمئن صلّوحة قدر الإمكان، ترهبها كل الآلام المحيطة، تبكي تنهنه، لم تخرج بعد من طور الطفولة، تلين ملامحه لها، يعرض عليها زيارة مقام سيدي يونس بالمدينة المجاورة للتبرُّك وطلب العون.

ذات ليلة استيقظت صلّوحة فزعة، حاولت فتح عينيها، تحريك يديها أو قدميها، حاولت التحدث ولم تتمكن. يطبق فمها على قطعة قماش، وأخرى مربوطة على عينيها، وأطرافها الأربعة مربّطة، تموء مذعورة، تحاول التخلص من الوضع الغريب، حواسها معطلة عن معرفة ما يحدث، تتململ تزق نفسها بحذر، تحاول التعرف على الحدود المحيطة، أخبرتها غرسة جسدها على القطن أنها ما زالت على السرير، تذكر أنها خشيت النوم إلى جوار عزيز هذه الليلة، يرعبها تحوّله غير المفهوم، تحاول تنبيهه إلى ما يفعل لكن القماشة بفمها تمنع، فقط صوت همهمات لتستنجد به، تبحث عنه، ترجوه ألا يفعل بها سوءًا. تهدأ، فكرت أن تركز صوتها لتتمكن من قراءة آية الكرسي وقصار السور، يتسحب إلى سمعها صوت فحيحٍ مكتوم، تدير وجهها يمينًا ويسارًا، الصوت يهمس مباشرةً في أذنها، ترجف، لا تعرف أي وجهة تتخذها، تحاول التخلص من قيود اليد، شعرت بيدٍ توثق القيد أكثر، عرفت من خشونة اليد والعروق النافرة أنها يد عزيز، رجته بالهمهمات أن يفكها، شعرت بنصلٍ معدني يمسد رقبتها، توقفت أنفاسها، تراخت أعصابها، سقطت، لا ترى إلا الأسود خلف عصابة عينيها.

***

فتحت صلوحة عينيها على ظهر عزيز نائمًا، حركت يديها وقدميها، فتّحت وغمّضت، لفتت وجهها يمينًا ويسارًا، رفعت جذعها عن الفراش، شعرت بدفقة دمٍ تتسرب من تحتها، ألم كبير أسفل بطنها، دموع تنهمر، لم يكن ما فات حُلمًا؛ أثر الألم والقيد تارك حمرة على جسدها، وضعت يدها على فمها تسكته، سمعت تزييقة حركة الباب، انتبهت إلى سكونه، ترددت قبل أن تُوقظ عزيز، وجدته محدقًا بها، همّت بمغادرة الفراش لكنه منعها، تحولت أنفاسه إلى دقات جرس تنبئ بالخطر، لا تقوى على الفكاك من قبضته الكبيرة العفيّة، يتمتم بما لا تفهم، كأن عملاقًا انحشر بحنجرته يتحدث منها، حاولت الصراخ انكتم صوتها، وجدت نفسها بحركة واحدة تحته، جسده يفور بالسخونة، يمسك فخذها ويشده ليبعده عن الآخر، تسعل وتتملص، تقوى على ضم فخذيها وتلف أقدامها، تسعل لتستعيد قدرتها على التحكم في صوتها، يخرج صوتها كفحيح ثعبان: «الدم، ما زلت حائضًا، لم يحن الوقت»

تُحكم قبضتها وتضرب على صدره، تستعيذ بالله من الشياطين والجان، تضرب، تبكي، تهدأ، يهدأ، يفيق، ينتفض مذعورًا. سحب نفسه من السرير والغرفة، سمعت صلوحة طبقة الباب الكبير، قامت تبحث عنه لم تجده.

ثلاثة أيام على غياب عزيز، تتفقد صلّوحة قدومه كل لحظة، خطواته، قطرات المياه السائلة من ذراعيه وهي تصبها عليه كل وضوء، ذهابه إلى الجامع، صوت تنحنحه عند الرجوع بعد كل صلاة، تسمع ذاك الصوت لكن الباب لم يُفتح. تأكل كسرات الخبز اليابس حاف عند الجوع الشديد، في الليل، تتقلب على الفراش ولا تغفو.

توقف الدم عن النزول، كان عزيز قد أخبرها عن وجوب التطهر بعد الحيض، سمعت آذان الفجر، انتظرت أول ضوء وسخّنت إناء مياهٍ على الكانون، جلست في «الطشت» النحاسي الكبير، تصب المياه على جانبيها، شعرت بيدٍ تسحب منها الكوز، كان هو عزيز، احتضنته بيديها الصغيرتين الضعيفتين، ملأ الكوز بالمياه الدافئة وصبها عليها، يحرك كفه الخشنة الكبيرة على ظهرها: حانت اللحظة يا صلّوحة؛ سنتم الزفاف هذا الصباح..

في كل صلاة تسخن صلّوحة إناء المياه ليستحما، وبعد الصلاة يفسدان الوضوء، نهار وليلة اختبر فيهما عزيز عمرًا كاملًا من الجمال، الرعشات المحمومة، صلّوحة أجمل نساء أهل الأرض. كأنها عذوبة التسابيح بعد كل صلاة. صوت تألمها الساحر يدفعه للمزيد من الألم، أخبرها أنهم لو خيروه في الجنة بين زوجاته الثلاثة مع حور العين كافة وبين صلّوحة في المقابل، سيختار صلّوحة. امتد الليل بعد صلاة العشاء إلى قرب الفجر، لا يعرف الشيخ عزيز من أي قوة خفية يغرف، أخبرها مع آخر دفقة أنه صبيّ وأسماه التهامي.

نام إلى جوارها ولم يستيقظ.

١٦

لم أجد اسم منى في الدفتر، تلكأت قليلًا، أنظر إلى قائمة أسماء مدرسي اللغة العربية، لاحظتْ موظفةُ الدفتر، نبهتني: اسمك ليس هنا يا أستاذ محمد. سكتُّ قلبت الصفحة مضيت وتركت القلم.

بحثت عن اسمها على الفيس لم أجده، هناك طابور ممن اسمهن منى جمال ليست بينهن. هل أغلقته أم وضعتني في قائمة المحظورين؟

ماذا يعني عدم وجود اسمها في دفتر الحضور والانصراف؟

لم أجد سهولة في سؤال أحدًا من الزملاء عنها، بعد أن حكت عن ظنونهم ووشايتهم لنا عند أهلها وأهل الزوج. لاحظتُ اجتنابهم للحديث عنها أمامي.

إذا كان الأمر مجرد إجازة لكُتب أمام اسمها، لكن اختفاء الاسم لا يعني إلا نقلها من المدرسة.

لم يبقَ سوى مصدر أخير للتأكد من الأمر.

الطالبات..

«سافرتْ يا أستاذ».

«نقلت إلى بلد بعيدة جدًّا، اسمها الثور».

«الأبلة» منى جارتنا يا أستاذ، نقلت بالقرب من خالها هناك في سيناء، بلد اسمها الطور، يقولون الرواتب هناك مضاعفة.

١٧

- «أبي، أتعرف صديقًا لعمي عامر من البلد اسمه شاهين الأعور؟».

أبي لا يهتم بالتواريخ ولا بالصلات، أظنه بالكاد يعرف أن له شقيقًا يدعى عامر، انقطعت كل صلاته بعمتي حنان بعد وفاة الجدة نعمة لأنها أخته من الأم فقط، لكني أعرف أنهم اختلفوا بشأن الميراث، الجدة نعمة ورثت عن جدي التهامي وحنان لها إرث من أمها، وأبي يرفض توريثها أرض أبيه. خلافات وخصومات وانتهت الحال بالقطيعة.

صرتُ ونورا ابنة عمتي حنان ضحايا الفُرقة، بعد رفض أبي وأمها زواجنا عزفت عن الأمر، حتى بعد أن تزوجتْ نورا وأنجبت، لم يعد الأمر يعنيني بقدر ما هو نكاية في أبي.

- «مات بعد الحرب في بضع سنين».

دائمًا يحسم إجاباته، لا مجال لمد الحديث معه، لا يترك طرفًا لأشده؛ مثلما كانت تفعل معي الجدة، يكفي أن أخبرها بالاسم وتبدأ بالحكي، كل التفاصيل التي طلبت والتي لم أطلب، تروي من خارج الحكاية حتى لو كانت طرفًا بها، فقط أقول لها مثلًا جدي التهامي، عندما تحكي عن التهامي ترص الحكاية بطريقة النسيج، تضعك مباشرة في منتصف الثوب حيث كل الخيوط مجدولة من حولك، تمامًا مثل التهامي الذي يعرف أي عقدة في النسيج عند حلّها تفكه بسلاسة، لا متعة تساوي نسج الخيوط إلا كرّها، فبعد أن رصّ سطرين من الطاقية لاحظ خطأ، يشد الخيط فتراجع غرسات الخيوط على مهل: يمنحه شعورًا بالرضا واللذة الخفية، يُجرِّي الريق على طرف لسانه. جرَّب أن يعبث ببعض الطواقي القديمة بثقبها وكرّ الخيوط في أكثر من مكان.

في رقدته الطويلة يغزل طواقي من الصوف على نوله الصغير ويبيعها، يعرف أنه سيقوم نوبة واحدة، يتوّعد الصغار عقاب أليم يأمنوه الآن.

سحره النسيج، آلات النول ناحية عائلة العجمي في البلد، يقف أمام ألواح الخشب والخيوط، تطربه موسيقى خبط الأخشاب، تكوين الألوان وتدرجاتها، خطوط الطول وتلاحمها مع صفوف العرض، مزيج مدهش، يقف أمامه بالساعات، يلقط كيفية العمل بمهارة، يهرب من الأرض ويعمل في النول. حياة التهامي تشبه تسَّحب خيوط النول من فوق وتحت، حدث هنا وحدث هناك، يتسحب بين الماضي والحاضر بخفة طرف خيط ليرى المستقبل، لا يهم عند أي حدث تقف، طالما في النهاية سترى الرسمة.

يوميًّا تطعمه أمه نخاع الذبائح، تجمعه من محلات الجزارة في القرية وتوصي به من القرى المجاورة، عادت العفاريت تظهر -حفظنا الله- للتهامي من طفولته، يعرفها ويفهم ألعابها، كان حلمًا مزعجًا؛ استيقظ الصغير يغسله العرق. رآهم في نومه. لم يكن يعرف أشكالهم؛ لكنه متأكد أنهم العفاريت. حاول أن يتذكر ما أخبروه بلا فائدة. لقد أمروه أن يفعل شيئًا! ماذا كان الأمر؟ كان على باله حالًا. أفلت من الذاكرة. أول ليلة للتهامي في فراشٍ غريب. تركته أمه لأعمامه؛ لتتزوج. صلّوحة كأنها لم تغادره أبدًا..

يتذكر التهامي عزيز تلك الليلة، عندما هرب من أعمامه، تسحّب إلى الجامع، تخفى في الحمّام، إلى أن تأكد من تمام إغلاق المسجد. كانت ليلة شديدة البرودة، حاول الاحتماء بالجدران صبّت المزيد على جسده الصغير، لم يجد أمامه سوى النعش، سيقضي الليل فيه لعله يحميه.

خشب النعش أحن عليك من صلّوحة وأعمامك يا تهامي.

لا يرى سوى ذاك المشهد البعيد وهو راقد على بطنه، أذرعه مربّطة خلف ظهره ومثلها أقدامه، يرفع رأسه ليجد صفًّا طويلًا من الأسرى المقيدين على جانبيه، يسمع لغةً لا سبيل له بفهمها، طلقات رصاص، ضحكات ساخرة، لكن ما يزعجه حقًّا الطائرات الحائمة بالأعلى، الرمال ملاصقة لوجهه، تلفحه سخونتها.

يروح الولد في نوم دافئ، يفتح عينه يجد نفسه قريبًا من خشب سقف الجامع، يرفع رأسه ليجد النعش محمولًا على الفراغ، يتطوّح كأرجوحة هنا وهناك، يلف ويدور بين جوانب الجدران.

في البعيد يرى دبابةً عليها النجمة الزرقاء، إسرائيليون في كل الجوانب، صيغة الكلام تدل على أنها أمر، لكنه يجهل اللغة..

هل تسكن العفاريتُ مسجدًا؟ يلمح الطفل ذيولًا وأقدامًا تشبه أقدام الماعز، الولد لا يخاف، فقط ينقلب إلى جانبه الأيمن ويروح في النوم.

تتحرك الدبابة على الأجساد المنطرحة أرضًا، يسمع التهامي صرخاتٍ مكتومة مرعبة، تسير المركبة على قشر بيض، يصله صوت فرقعة العظام تحت جنازير الكائن المعدني الضخم. تتمهل بين الرجل ومن بعده، يسمع صيحاتٍ متحمسة شامتة.

يقوم الطفل على صوت تسليم صلاة الفجر، لم يسمع الأذان والإقامة وشعائر الركعتين، يخرج من النعش على التفاتة صفي المصلين في التسليمة نحو اليمين، لم تَدُر رؤوسهم إلى اليسار.

الموت وشيك لمن يخشى الموت، والتهامي لا يعبأ كثيرًا بتلك الأمور، من يناوله علبة تبغ وورق بفرة وعلبة كبريت الآن، سيلف لنفسه سيجارة ويشربها حتى تقوم الدبابة بعملها. كل ما يشغل فكره الآن: هل ستتزوج نعمة بعد وفاته؟

بُهت المصلّون بخروج جسد صغير من النعش، اتسعت الأحداق لتتأكد، يتثاءب الصبي ويتمطع، يرتبك الصفان، البعض قام مسرعًا خارجًا من المسجد دون حذائه، البعض أطال النظر للتعرف عليه.

إنه الولد التهامي عزيز، يبحثون عنه طوال ليلة أمس.

لا يقوى على المبيت في النعش غير ابن عفاريت مثله.

علّم عامر كيف يرى العفاريت ويميزها حتى لا تجذبه وتقتله، كان يحذره بوجودها: تظهر في الليل وأوقات الظهيرة، أول ظهورها لعامر تشكلت له امرأة في غاية الجمال، لم يعرف هل هو يقظ أم نائم إلى جوار الساقية (الطمبوشة) كانت واقفة خيّل إليه أنها تدور، يفتح عيونه يجدها على حالها والبغل يرعى في الأرض بعيدًا، يوارب جفنيه يلمحها هناك تدوّر الساقية بملابس مبللة تبرز استدارات الجسد الخمري، انتصب عضوه وانتفخ -كانت المرة الأولى- خاف وأدرك أنها الجنيّة، فتح عيونه وجد ملابسه مبللة مع بعض الدفقات الدافئة، أشارت له أن يتبعها إلى الساقية يعرف أنها ستغرقه، تضاعف خوفه قام وركب بغلته وجرى إلى الدار. يومها اندهش من رد فعل التهامي الذي سب ولعن كل العفاريت، وحذرها -كأنها واقفة أمامه- من أن تفعل سوءًا بأبنائه، هددها بعذاب شديد لا قِبل لها به.

كانت الشمس الثانية التي يراها التهامي على الجبهة، انتزعوه من طين أرضه حملته عربة الترحيلات إلى رمال الصحراء بملابسه، حتى إنه لم يخبر نعمة بذهابه، فقط أشار لعامر بأنه سيعود بعد أيام. مسافة نهار حمل سلاحًا واتخذ موقعًا وقيل له ستدافع عن الوطن.

ولد شيطان لم تحتمل صلّوحة شقاوته، نار محمومة لا تهمد أبدًا، أكثر من مرة يتسبب في حريق، يقفز من فوق السطوح إلى كوم القش، يخنق صغار البط. يتسبب في كسر ذراع ابن الجيران الذي يكبره بستة أعوام، ومن جانب آخر لم تكف محاولات أعمامه في السيطرة على ميراث الصغير وأمه، دس الأقاويل عن مساعدات الجان لعزيز حتى يحظى بولد، وإن كان على حساب روحه.

على مسافة رجلين تقف الدبابة، يلتفت التهامي إلى الجندي التالي يخبره أنها ستتوقف، يدير رأسه لها يرى الدم يقطر من الجنزير الأسود الصلب، بينه وبينها رجل، تزحف وتبتلعه، المحركات تهدِر، قبيل التهامي بسنتيمترات وتقف.

خزّق عين ابن عمه.

يقول عني ابن عفاريت.

لم تحتمل صلّوحة كثرة مشاكل الولد، يحتاج رجلًا يلّجمه، كادت تصدق ما أشيع عنه! تركت الطفل والميراث ووافقتْ على الزواج برجلٍ من قرية مجاورة.

لو يعرف التهامي لمَ هو هنا؟ هل أتوا به من أرضه ليأمروه بالانسحاب! لا مهرب من الأسر، دفن بندقيته تحت شجرة، لن يتركها لليهود.

يتكرر هروب التهامي من قسوة أعمامه، يكلّفونه بأعمال الأرض من قبل أذان الفجر إلى بعد المغيب، يسيح في القرى المجاورة: يبحث عن صلّوحة، هل تركته بلا رجعة؟ يهرب إلى النول ليتعلم.

لا يعرف التهامي معنى للألم، وما الرابط بينه وبين لفظ آه؟ هذه الكلمة فقط للنساء في مضاجع الرجال، يسمعها تتردد حوله في المعسكر من كل اتجاه، لكنه لم يلفظها، صار رهانًا بين الإسرائيليين على أن يخرجوا منه تأوهًا، لكن تدريباته في معسكر أعمامه ساعدته في تحمل مزيد من الألم.

دس أعمامه اسم أخ وهمي للتهامي في أوراق الحكومة، ولحين ثبوت عدم وجوده دخل التهامي الجيش.

الكل قتيل على الجبهة في نكسة مخزية، سقط الجيش ولا أحد يعلم إن كان له وقفة أو لا؟ يقع التهامي مع آلاف الأسرى، يتسلى العدو بتعذيبهم وقتلهم بدماءٍ باردة، ومن ينجو تقتله الصحراء، الجوع، العطش، الخوف. ويعود التهامي بعد كل هذا حي! هل خاف اليهود أقدامه التي تتحول قرب الفجر إلى رجلي ماعز.

قبل أن يتم التهامي عامه العشرين يتزوج من نعمة، وقتها فقط لم يعد يبحث عن صلّوحة، لكنها تعرف كل أخبار ابنها من بعيد، شيء ما يجبرها على عدم العودة، لو عادت لن تتركه أبدًا.. إلى أن سمعت بغيابه في الحرب. عادت وبقيت مع نعمة وأبنائه إلى أن رجع.

كلما همَّ ضابط إسرائيلي بقتل التهامي؛ تعثر وطاشت رصاصته، ألم شديد في العضلات يجبره على عدم الضغط على الزناد، أو عطل مفاجئ للسلاح، يتكرر الأمر بتدبير مريب، حتى إنهم جنّبوه في ركنٍ خاص مغمض العينين، وفي نهار استيقظ على ألم جرحٍ غائرٍ في الثلث الأخير من ظهره، مع عدم الشعور بقدميه، فلا سلطة له عليهما.

يجرونه جرًّا، يرفعونه ويرمونه على سطح معدني ساخن، عند اهتزاز صوت المحرك يدرك أنها سيارة، حدة حرارة الشمس تخبره أن الوقت قبل الظهر بدقائق، وتتوقف السيارة والشمس تتجه نحو المغيب، يبيت ليلته في السياره، مع نسمات فجرية باردة تتحرك السيارة مجددًا، ينتهي به الأمر إلى أيادٍ مصريه تحل عنه عصابة عينيه: لا أماكن في المستشفيات، تنتظر أم نسلمك لأهلك؟ طلب التهامي إيصاله إلى البيت.

وهو مغادر يرى نفسه هناك من فُرجة بنافذة السيارة، أعلى قمة الجبل البعيد قتيلًا، يقرّب مربعات النسيج ويعرف أنه رأى عامر، في بضع سنين على نفس الأرض المنهزمة حيث أفقده اليهود الحركة، سيُقتل ابنه.

استيقظ التهامي عزيز ذات يوم، قام واقفًا على رجليه ومشى، بعد مضيّ عامين على عودته من الحرب مشلولًا في عربة الجيش المصفحة، رموه كومةً محطمةً لزوجته وأمه، فقط يحرّك يديه.

يتحرك التهامي إلى أرضه قبيل الفجر، يجر الحصان، يجهز العربة الخشبية، يلقي عليها العَلَق والفأس، يتأكد من وجود شتلات الأرز، يزغد نعمة حتى تستيقظ، بصيحة واحدة يوقظ أبناءه. اليوم عمل شاق من زرع الشتلات، سيسبقهم حتى يغرق الأرض بالماء إلى أن يتبعوه.

تسمع نعمة سلامه على الفراغ طوال الطريق، اعتادت، تعرف أنه يرى. التهامي القاسي يضرب الحصان بالعصا السميكة بلا رحمة، لا يتوانى عن غمز زوجه خبطة أو اثنتين أثناء اليوم، ولا يسلم أبناؤه من لسانه السليط وأوامره التي لا تنتهي، كأنهم عمّال بالأجر، تحتمل نعمة كل هذا مقابل نظرة حنونة يمنحها

لسنية -ابنتها من المرحوم زوجها السابق- يفضّلها عن كل أبنائه من صلبه، تظن أحيانًا أنه تزوجها أرملة بابنتها -رغم أنه لم يسبق له الزواج- ليمنح هذه اليتيمة كل الحنان الذي قد حُرمه في طفولته.

القمر يسقط لمعته على المياه في الأرض: من رواها؟ يبلل التهامي أقدامه ليتأكد، هل أخطأ أحد الجيران، هل يخطئ فلاح أرضه يا تهامي؟ تخبره نعمة أن شتلات الأرز مغروسة، مزيد من الجنون، هل علم العفاريت رغبته في زرع الأرز!

لم يعرف أي من جيران الأرض أي شيء عن أمر زرع الشتلات، استنكروا أن يتم الأمر بين غروب الشمس وقبيل الفجر: عفاريتك غرسوها يا تهامي.

لو عامر هنا لظنّ أنه تسحب ليلًا وغرس الشتلات؛ ولد عفيّ لكنه سيموت في عزِّه، يعرف ويكذّب نفسه، يطْبق قبضته على عظام جانب صدره اليمنى حيث وخزة تخبره بمكان الجرح القاتل.

انتبه عامر أن ملابس الجيش على الحبل ما زالت رطبة رغم حرارة الشمس، بعض الأجزاء تقطر مياه ما زالت؛ كأن السحاب أسقط مطرًا فوقها فقط! سيتأخر حتمًا لو انتظر تمام جفافها، ارتداها رطبة، قبل أن يسافر انحنى يقبل يد التهامي: إلهي تروح ما ترجع؛ لم تكن دعوة بقدر ما كان يوعّي عامر، لعله يتفادى ضربة القدر..

مد التهامي يده في ظهر ابنه وطلَّع الرصاصة، ثم وضعها إلى جواره لتراها الملائكة عند الحساب.

بعد أن أتم بناء عين مقبرة وحيدة، قرر التهامي السفر والبحث عن جسد عامر في مقابر الشهداء بالجيش الثالث، حفر على قبر ابنه بيده، أخرجه بالأفرول الذي رشّه بيده خلسة قبل أن يسافر النوبة الأخيرة علّه يتعطل ولا يلحق موعد القطار، لم يكن هناك مفر من المقسوم.

أحسن حبوب أرز هذا العام عند التهامي عزيز، عيدان معتبرة وحبوب مضاعفة، ناصعة البياض، كل هذا وبار المحصول لديه، لم يشترِ أهل البلد محصول العفاريت، خرج التهامي لأسواق القرى المجاورة يبيعه.

اتفق عامر مع أنفار أغراب على شتل الأرض، لم يخبر التهامي، يعرف مسبقًا برفضه الشديد، ولن ينتظر حتى يعود عامر ليساعده. اشترط عليهم أن يتم الأمر سرًّا في الليل بعد أن يتسحب الفلاحون من الأرض إلى بيوتهم وقت المغربية.

لم يسأل التهامي عن غياب صلّوحة الطويل كأنها غادرته فقط ليلة أمس، حاولت أن تكشف له تفاصيل عن حياتها لكنه يرفض الاستماع، تكررت زيارات أبنائها يطالبونها بالعودة فترفض.

١٨

تعرف:

اتهموني بالجنون لأنني أطلب الطلاق، وعندما تكلمت معهم بالهدوء والعقل، أكدوا أنني مسيّرة من قوى خفية شريرة -تركبني العفاريت- لم يعجبهم طلبي المنطقي في حقي بالانفصال، لم أعد أحتمل الحياة معه، متزوجة بالاسم، معلّقة في حبال الغربة معه وعنه، يحملونني وحدي ذنب عدم الإنجاب إلى الآن؛ وهل سأنجب بالمراسلة؟ تذللتُ له كي يعود أو يصحبني معه، بكيت وتألمت من تعليقاتهم المهينة لي لأني لم أنجب، سرًّا أحمد الله على هذه الميزة؛ لا أريده أن يكون أبًا لأطفالي.

أكره نفسي معه، أكرهه، ننهي كل نقاشاتنا بخلاف وخصام، كل هذا في نظرهم ليس مبررًا للانفصال، هل ينبغي أن يقتلَ أحدنا الآخر كي تغمض جفونهم -والله فكرّت بالأمر- أتمنى لو أرشق سكينًا بقلبه، لو أستيقظ ليلًا وأطبق في رقبته أو أكتم أنفاسه بالوسادة، ولا أقوى على فعل ذلك.

تعرف:

هم لا يحبون المنطق، لا يؤمنون بالمعطيات والنتائج: حياة جافة باردة لا يمكن أن تستمر بشكلٍ سويّ، دائمًا يريدون طرفًا خفيًّا يلصقون به التهم، لا يعنيهم التباعد الجسدي والنفسي بيننا، تضارب رؤانا في الأمور، اختلافنا في كل صغيرة وكبيرة. طالما يطعمني ويسقيني ويكسيني يكون زوجًا مثاليًّا، من المؤكد أن ذلك صحيح إذا كانت الزوجة بهيمة، وأنا لم أرَ نفسي سوى بشر، لم أرد إلا حقي في الحياة، أن يؤمن بي شريكي وأومن به، لكن كلانا كفر بالآخر.

هو يحرّم ضوء الشمس على وجهي، يراني عورة ينبغي تغطيتها، وأنا حرّة أحب الشعر والأغاني والكتابة.

- «هتطلّقي عشان شِعر وكلام فاضي».

الشِّعر الذي يراه كلامًا فارغًا أراه روحي، الكتّاب الذين أُغرم بهم يوصمهم بالكفر. يهمّش الفن وهو مَنْني.

نعم وافقت على الزواج منه بإرادتي لست مجبرة، بالعكس كنت أحبه أو على وجه الدقة أحب الصورة التي رسمها خيالي عنه، كان أبوانا أصدقاء وجيرانًا، نتزاور باستمرار، مصادفة فتحت درج مكتبه وجدته مرصعًا بروايات الجيب المفضّلة لي وقتها، عرفت أنها تخصه فورًا أحببته، قصة ساذجة لكنها تناسبني، لا أدري لمَ أوهمت نفسي أنّه أيضًا ينظر لي ويحبني، تكفيني نظرة لأبني مدنًا وهمية، للأسف أدرك هذا الآن فقط. سافر الشاب السعودية، انتظرت الأميرةُ المغرمةُ الولدَ المثقف القارئ! عندما عاد سمعت أنه تقدم لخطبة بنت خالته لكنها رفضت، انتهى الأمر به إليّ، طرت فرحًا به. الولد المؤدب الخجول المصلّي. كل شيء يتم في عجلة: العريس مسافر بعد شهر، سيعود بعد عامين ليتم الزواج. تزعجني الحكاية، التذكر، كأني أحكي عن غيري، لست أنا من وافقتْ، الأمر معقّد لكنني أملك التفسير، أنا وهو كنّا على نفس العتبة يومًا ما، لكنّا دخلنا أبوابًا متفرقة حيث لا تلاقي مجددًا.

تعرف:

كل ما في الأمر أنني أكره التمثيل، أمثّل دور الزوجة المحبة المنتظرة، ولا أعرف ماذا أنتظر، هل أنتظر حضوره أم غيابه، أمثّل وهو هنا السعادة، وأمثّل الحزن وهو هناك. لا شيء يجمعنا؛ حتى الفراش كان له وحده، حقه فقط في المتعة وأنا دمية لرغبته فقط.

لم يعجبهم المنطق الذي فسرت به الأمور: قررت أن أحارب بتكنيكهم هم، افتعلت المشاكل مع أهله، افتعلت غضبي عند سماع بعض الآيات من القرآن، كنت أتعمد إخافته، استيقظ ذات ليلة وجدني أخرّف ممسكةً بسكين المطبخ. دارت الشكوك حولي بين (معمولي عمل) أو (عاشقني عفريت) فليكن الأمر، ساعدتهم في تأكيد تلك الشكوك. يوم أحضروا شيخًا ليقرأ عليّ القرآن، صرخت، غيرت صوتي، سببتهم

بأقذر الألفاظ. تخيل أن الشيخ نفسه صدقني وأخبرهم أن عليّ عشيرة من الجان! يبدو أن جسدي تفاعل مع الأمر أكثر من اللازم ونزفت من أنفي، لو تراني لجنة تحكيم الأوسكار ستمنحها لي بطيب خاطر. منحني خوفهم مني مساحة شخصية من الوحدة، خوفه منّي أطلق سراحي، في النهاية تحقق ما أريد.

لم يكن بعقلي شيطان سوى الشعر، وإن لم أحقق فيه ما أريد بعد، أحكي لك عن المسابقات التي أرسلت إليها أعمالي سرًّا: أفوز قبل إعلان النتيجة، أسافر ويعترف بي الأهل والأعداء، أقول لهم أنا هنا الشاعرة منى جمال، لكن ولا مرة أربح، أراكم النصوص بعضها فوق بعض، ديوان بعد الآخر، أكتب وأحذف ولا يقرأني أحد.

كنت أراقب حسابك على الفيسبوك من بعيد، رأيت صورة لك وخلفك مكتبة، عرفت أنك تحب القراءة، سمعتك وأنت تدرب الطالبات على إلقاء قصائد عن أكتوبر لفؤاد حداد شاعري المفضّل كنت أعرف أنك تشبهني، اصطحبت كتبًا معي وجلستُ في مقاعد الملعب لأقرأ، أدرّب البنات على إلقاء الشعر لأخلق بيننا حديثًا. رددتني عشرة أعوام.. حيث كنت أحلم؛ احتقرتُ نفسي، حاولت التقرب منه لكنه دائمًا مشغول، لا يحب الكلام الكثير أو بمعنى أصح المكالمات الدولية تكلفه المزيد من الريالات، في النهاية تُسَد الطرق بيننا، طلبت منه أن نتواصل على الفيسبوك، دفع الاحتمال وأكد أن الفيسبوك فقط للتافهين. في يوم جربت البحث عن اسمه، وجدت حسابًا بمعلوماتٍ مطابقة له لكن دون صورة، جرّبت إدخال رقم هاتفه مكان البريد الإلكتروني وتاريخ ميلاده في الرقم السريّ؛ فُتح الحساب لي. الشيخ علاء العارف بالله ورسوله، مكفّر كل الفنانين والكتّاب، محرّم الرسم والصّور والنحت والقراءة والشعر: يطلب من فتيات ليل فيديوهات إباحية..

لم أخبر أحدًا بما عرفت، الحديث يريح، وأنا أريد الخلاص، أشحن نفسي بكل المواقف السيئة التي اختبرتها معه.

تعرف أني سقطتُ أمامه في الشارع ولم يمد لي يده يساعدني على الوقوف، تركني أستعيد توازني وحدي، هل يبدو الأمر تافهًا؟ لكني لا أراه كذلك، كنت أنتظر يده طوال الوقت لكنه أبدًا لم يمدها، في المواصلات يصعد الباص وينزل ولا يلتفت ليدي الممدودة، ظلت يدي وحيدة بلا مدد إلى أن فاض بي، فجأة وبعد طلبي الطلاق، انهالت عليّ عروضه بالعودة والحديث لأمنحه الفرصة حتى يصلح ما أفسده، لم يعلم أن الأوان قد فات..

انتبهت إلى وضعك إعجابًا بحرص على منشوراتي، عرفت أنك انتبهت إلى وجودي، وتنبهني إلى وجودك، تذكُر حديثنا المطوّل عن الكتب عقب الطابور بعد أن رددت لي كتابي الحب في المنفى، لا أعرف أي شيطان كان يراقبنا من الفصول يومها، وظل متتبعني حتى التقط عنوان الكتاب: واكتفى بكلمة (الحب). المدرسة كلها عرفت أن الأستاذ محمد أهدى «الأبلة» منى كتابًا عن الحب. لم يكتفِ الأساتذة بالعنوان الرئيسي للخبر، صاغوا «المانشيتات» الجانبية، والتساؤلات الجهنمية، حول العلاقة الموضوعية بين طلب الطلاق، وعلاقة جديدة أدخلها. طوال مدة عملي بالمدرسة لم أسمح لأحد بالتدخل في حياتي أو معرفة ما فيها، أتركهم للظنون لا أؤكد أو أنفي: هذا يحرقهم أكثر، لكنهم دائمًا يكملون الناقص بخيالهم.

١٩

مثلهم كنت أخشى المنزل المقابل للمدرسة من حكايات الناس عنه، تتصاعد أصوات مذعورة صراخ غير إنساني طوال الليل، ورغم معرفتي التامة أنه صوتي كنت أخاف.

أنا عفريتة البيت، لا أعرف عدد الأيام التي حُبست فيها مقيدة، أنقي الخبز اليابس من الأرض كالفراخ، أرشف المياه، أحرص على أن تكون الكمية قليلة حتى لا تنفد بسرعة.

لم تكن المنطقة عمارًا كما هي الآن، كانت المدرسة قبل الهدم والبناء مبنى قديمًا، دوّارٌ لسيد من الأكابر تحوطه الأراضي الزراعية من جميع الجهات، وضعت الحكومة يدها عليه وحوّلته مدرسة، خلفها المبنى القديم، كان منافع للدوّار الكبير لتربية الدواجن والأرانب وبعض البهائم، لا شوارع ولا مباني إلا نادرًا. عرفت المكان وأنا في طريقي للهرب، بعد أن اجتذب صوتي فضول بعض الصبية أثناء لعبهم حول البيت المهجور، تشجّع أحدهم واقترب مني وقد فرّ الباقي على ظنهم بشبحيتي، لم يتردد الولد فك وثاقي وهرب.

هربت وصوت شاهين يطاردني، كما حامت حوله الأصوات، الْتفَّت عليه وقيدته، تبعها مغمض العينين، يفعل ما تأمره، يصدق ما تدسه في رأسه من أكاذيب مضللة. سمعته يرد عليها ليلة زفافنا، طاف حولي كما تطوف الحدأة فوق الفراخ الصغيرة قبل أن تخطف منها.

قال إني السبب في فشله ليلة الزفاف، وأضاف اسم عامر، زَعم أنه سلّط عليه أعوانه من الجان، كل ليلة ينتقم مني لسببٍ لا أعلمه، يحدّث الفراغ ولا أسمع الجواب، فقط الضرب ووابل الشتائم، فض بكارتي بإصبعه نزفت بسببه جمعة كاملة.

أخفيتُ فرحي باستدعائه للجيش، وددتُ لو أكسر وراءه قلل البيت كلها، وُهِمتُ بأني سأتخلص منه. يعود ويتصاعد جنونه إلى حد اللامحتمل، يسأل عن زيارات عامر ابن الخالة نعمة بريبة. ينجح في محاولاته بالدخول بي بمنتهى القسوة، له رائحة فم كالجيفة.

لم يهدأ، سمعته يتحدث وراء البيت مع قريبه الذي يشرح له خط سيري، أين ذهبت، متى عدت، عرفت أن كل خطوة وحركة خارج البيت مرصودة بأعينٍ واشية.

هربتُ منه، جمعت ملابسي وبعض مفارش السرير، ألقيتها من شباك غرفتي وقفزت فوقها، حملت الملابس وجريت إلى بيت أمي، هددتها، أقسمت عليها أنها لو أعادتني إليه سأعاود الهرب ولن أعود إليها. لا أعرف كيف خدعها وخدعني أوهمنا بأنه لن يعود لأفعاله ثانية، صدّقته أمي على الفور، داخلي شيء لا يحسم الأمر، لا يصدق، ينكر كل ما أسمع، مع ذلك لم أحتمل دموعه، كانت المرة الأولى التي أرى فيها دموعًا لرجل، ظننت سابقًا أن الرجال لا تدمع أبدًا، أربكني سقوطها، كوى قلبي لكني لم أظهر شفقة، قررت أن أضع شروطًا لعودتي، وإن لم تُنفذ سأعاود الهرب إلى حيث لا يجدونني. وافق على كل ما طلبت بسهولة. عدت معه أذكر أني عشت معه أجمل ليلة بعمري، واستيقظت بالمنزل المهجور..

في الصباح بحثَ عني عند أمي، استند إلى تهديدي بالهرب ليبعد عن نفسه شبهة احتجازي في مكانٍ ما. في النهار يجوب القرى المجاورة معهم باحثًا عني، والليل يغافلهم ويتسلل إليّ.

كل ليلة يختص جزءًا من جسدي يمارس عليه طقوسًا شيطانية من التعذيب، ورغم أن أول ليلة كانت تقريبًا بلا ألم يذكر، إلا أنها كانت أشدها قسوة، عندما بدأ بقص خصلات شعري ورميها تحت أقدامه، كأنه يسلخ عني روحي كتلةً من الشوك مكورة بثوبٍ من الصوف وينزعها بقسوة، أبكي بحرقة مع كل خصلة أتوسل إليه أن يبقيه لي. لم يكن يسمع.

أحضر أدواته المعدنية المدببة الدقيقة، وبدأ صَلاته التعذيبية، يرسم على جسدي بالإبر، يكتب على فخذي حروفًا متفرقة، يسخن مطرقة حديد عدة مرات متدرجة في السخونة ويقرّبه من الجلد حتى يحترق،

قسّم ما بين كل مفصلين لتكون له ليلته الخاصة، كان يتفادى أماكن القتل ليبقي على حياتي ويستمر في تعذيبي. بكيت كثيرًا توسلت إليه حتى يعتقني لوجه الله، لكنه لم يفعل قط.

أنهكتني قلة الطعام والشراب، والألم المتواصل من أماكن جسدي المتفرقة، لا تبدأ منطقة في التعافي حتى يتصاعد الوجع من مكانٍ مجاور، صرت لا أعرف تحديدًا أي منطقة بجسدي تؤلم. وفي ختام كل ليلة يأخذ حقوقه الزوجية مثل البهائم. يتركني بأوساخي وأوجاعي اللامحتملة، يتقيح الجلد ويتصبغ بالأزرق القاتم والأحمر فيدهنه بمرهمٍ حتى يُشفى. أخبرني ذات مرّة أنه سيعود للجيش حتى لا أنهي الطعام والشراب سريعًا وعودته غير منتظرة.

فكرتُ أن استغيثُ بالمارة خارج المنزل، لم أدرِ بأي مكانٍ كنت، لكني كنت أنادي، أبكي، أموء، أنبح، أصرخ بلا فائدة. أسمع صياح صبية بالخارج، نسيت كل الكلام، فقط صراخ مذعور، يعم الصمت بعدها أعرف أنهم قد هربوا خائفين ظانين أن الصوت ليس بشريًّا.

جسدي يتضاءل، الجلد يكرمش، تغوص عيناي في وجهي، يفزعني النظر إلى انعكاس وجهي في إناء المياه.

يرعبني قرب انتهاء كسرات الخبز وانخفاض مستوى الماء في الإناء، أضاعف حرصي على الاستهلاك، أتخمّر مع الوقت على مهل ويخبزني الانتظار، تخرطني قطرات الدمع كأوراق ملوخية تحت نصل معدني لامع، تتشوش الرؤية، أرى خيالات سوداء تمر، سخونة مفزعة في العتمة تلفحني، أصوات الثعالب بالخارج، مرور الفئران والسحالي والعِرس، لو أتحول نملة وأمر من الثقوب، أهرب من الموت المؤجل بالنوم، أغفو تفزعني الكوابيس، لا أعرف أي ذنب اقترفت،

لا أدري ما الذي أعاده بعد كل هذه السنين. لم أصدّق الإشارة، زارني شاهين في الحلم، يحترق، يتحول رمادًا، تقف على جثته المتفحمة قطةٌ سوداء، لها عيون عمك عامر، تأمرني بشيء، تلح عليّ، تهددني.

يتغير الحلم بصورٍ مفزعة، يمرر جدك التهامي خيطًا حريريًّا من جلدة رأس شاهين، يصنع فاصلًا بين الجلد واللحم، ويسلخ جلد الجسم كله، أرى غرابًا من بعيد، يطير إلى رائحة الدم، ينقر من اللحم الأحمر لا يبتلعه، يبصقه في الرمال الساخنة، يتصاعد الدخان من قطع اللحم المتناثرة، يترك العيون إلى النهاية لا يفقأها حتى يرى شاهين عذابه كاملًا.

في كابوسٍ جديد رأيته مقيدًا بأسلاك شائكة محمرّة من الصهد، الشوك ينغرس حتى يصل للعظم، يصرخ، يتسحب السلك على جسده، يدميه من كل نقطة بجسده. يأتي عامر متمهلًا، يرش عليه سائلًا يتضاعف الصراخ والنزيف، يشوه الجلد، ضحكات عامر ترن من الأرض للسماء كأنها ترسل إشارات خفية، أسمع دبيب زحف قادم على الرمال، أفزعني هذا الكم اللانهائي من النمل كبير الحجم محدثًا صوتًا على انخفاضه إلا أنه كان مفزعًا على الرمال، يحاول شاهين التخلص من قيوده، تتجرف جروحه أكثر، كان النمل أسرع، يعرف طريقه نحو شاهين، في مشهد مرعب، يدخل النمل في صفوفٍ في كل الثقوب بالجسد حتى غطته تمامًا.

لم أسامح شاهين أبدًا على ما فعله بي، حتى بعد أن وصلني خبر موته عقب انتهاء الحرب، في حادث انفجار لغم من أثر المعارك، لم أصدّق ما حدث: لا جسد أقف أمامه لأتأكد من وفاته. سنين طويلة يزعجني طيفه، يمر ثقيلًا، لا يعتذر، لا يندم، فقط يكره، لا يعرف سوى الحقد والغل.

روح عامر تَعِبة، ولن تهمد حتى تُظهر الحقيقة، تحاول منذ عمر، سلّطَتِ التهامي بالبحث عن الجسد في الصحراء، بالفعل استعاده ودفنه بالقرب منه، ذاع في البلد أن التهامي أخرج الرصاصة من جسد ابنه ووضعها إلى جواره لتشفع له عند ربه، لتجدها أنت وتحتفظ بها عندما تشققت المقبرة وأفسدها المطر، وكانت أول مقبرة مُجددة بالسيراميك في البلد، أتعبني المرور من أمامها، أعرف أن عامر غير مرتاح بالداخل وكل هذه محاولات منه ليظهر الحقيقة.

رأيتُ صورة الرصاصة على النت، أخبرني ابني -لا مباليًا- بالخبر على سبيل المصادفة، لم يعتد أبدًا على إخباري بما يمرر بأصابعه على الشاشات الزجاجية الباردة، فقط يصمت حانيًا رأسه على الزجاج، الأمر لم يكن عفويًّا، قصدتني الرسالة وحدي، في نفس اليوم أخبرني مصطفى الصغير، أنه يلعب مع شاهين في الشرفة، تلح عليّ الكوابيس كي أتكلم، أفض ما بداخلي، أكتم كل ما أعرف في قلبي منذ سنين.
عرفت أن عامر يضمر شرًّا كبيرًا بعد موت مصطفى، سمعت صوته ينادي كل فجر وقت سقوط الولد، أخرج، أبحث عنه هنا وهناك، عرفت أنه لن يرضى حتى أبوح.

فزعت يوم رأيتك في العزاء، الشبه بينكما كبير، يبدو أنه أرسلك، قررت أن أنيخ أحمالي أمامك؛ لعل عامر يستريح في قبره.

سمعتُ كل شيءٍ من شاهين، يغمّي عيني ويتحدث لطرفٍ خفيّ لا يرد، كان يكره عامر..

٢٠

أكره عامر أكثر من الإسرائيليين يستحق الموت أكثر منهم، أكره وجوده، أكره الهواء الذي يتنفسه لو أفرّغ فيه بندقيتي وأملأ جسده بالثقوب، لو ألقي صاروخًا على رأسه يفتته ويتناثر لحمه في الصحراء ولا يقوى أحدٌ على تجميعه، لو أغطسه في برميل نابالم فيتلاشى ولا يبين له أثر، لكن الموت السريع سيرحمه ويحرمني من متعة التلصص على عذابه وذله وتمنيه الموت فلا يحدث. يوميًّا يحيط بنا الموت من كل جانب ولا يختاره، في كل مرة ينجو بأعجوبة، تخطئه الشظايا والنيران والطلقات، تسبقه هالاتٌ شيطانية تفديه.

هذا المهرِّج، يلعب ألعابه الساذجة على الجبهة ويصدقونه، يدّعون أنه ولي وشيخ وما هو إلا كاذب، أعرفه، سقطوا في حبائله كما سقطتْ سبيلة، مد يده خلف أذنها سحب وردة حتمًا كانت مخبأة في أكمامه، قدمها لها بمهارة لاعب سيرك خفيف اليد، تبعتْه هو ولم تنتبه لوجودي، كان يعرف أنني أريدها ولم يكف عن نصب فخاخه حولها، يجف ريقه عند شبّاكها فيلتقط القلّة ويشرب -شرب من نار جهنم- سيّرها إليه بخبث، سلّط عليها عفاريت أبيه وأجداده حتى إنها لم تكن تراني إلى جانبه -أنا مَنْ نبهه لوجودها- سبقني إليها. لن أتركه يحصل عليها، تقدمتُ لخطبتها بعد أن استدعوه إلى الجيش. وافقتْ أمها على الفور، قررتُ إتمام كل شيء بسرعة قبل أن يعود.

سمعتُ أنه عاد صباح يوم زفافي، تصوّر أنه بمنتهى التبجح زارني وبارك لي، في الليل عرفت سر زيارته؛ ربطني هذا المخادع، قيدني لم أقوَ على الدخول بسبيلة، كانت تخدعني هي الثانية، أعرف أنها رأته سرًّا ويتآمران عليّ. تستحق ما أفعل بها كل ليلة وأكثر، أتمنى لو أشعلها كالسيجارة، تحترق أمامي على مهل ثم أسحقها بطين حذائي. شككت في عذريتها، هل يظن أنه يمنعني حتى لا أفضح سرهما، لعنهما الله في كل كتاب، ما زال المنديل أبيض، سأبلله بالدم إن لم يكن من بين فخذيها ليكن من رقبتها. لكن قطرات الدم لا تنفي أبدًا تآمرهما عليّ.

لمَ أتألم وحدي؟

هما يستحقان العذاب أكثر مني، تقتلني محاولاتي كل ليلة، فشلي في أن أكون رجلًا، نظرات التشفي من الفاجرة، لا يشفي غليلي إلا دموعها وهي مقيّدة، بعد أن أبرحها ضربًا.

ألحظ ضحكات الرجال في المجالس، همسات النساء عند مروري، فضحتني في البلد تلك العاهرة، لا أصدق أيمانها المغلظة أنها لم تُخرج سريّ، هي السبب فيما أنا فيه.

طُلبت في التجنيد، وليكتمل سوء حظي، من بين كل أسلحة الجيش وفصائله، وترامي كتائبه في الصحراء، أجد نفسي مع عامر في نفس الكتيبة. يفعل فعلته معي ويرحب بي، يخبرهم ساخرًا أني عريس جديد، حتمًا أخبرتْه بنجاح مخططهما، حسابها معي عسير.

اختفى عامر من الكتيبة، عرفت أنه نزل إجازة، هل سيتقابلان؟ تغلي الدماء في عروقي، أسمع صوت فورانها بقلبي.

أجوع، تنعصر معدتي، أحس البلل في أقدامي، البيادة تختزن الحرارة، في المقابل هناك أرى العدو في ملابس خفيفةٍ وأحذيةٍ تكشف أقدامهم، يرتعون ويأكلون، يغيظوننا بأصناف الطعام والمشاريب.

هل عامر يتناول الطعام الآن معها؟ وماذا بعد الأكل! أرى كل الوجوه على الجانب الآخر عامر، لو أتلقى أمرًا بضرب النار سأنسفهم.

سبيلة على الجانب الآخر!

بنات على الجبهة!

اقترب يوم القيامة يا سادة، لها نفس قصر قامة سبيلة، ومحيط الخصر وطول الشعر، تتمايل بدلع، يرفعون أصوات الأغاني لنسمع، ترقص المرأة كلبؤة هائجة، تنظر إلينا، الشمس تضرب في شمع أفخاذها الناصعة، تشير بدعواتٍ صريحة للعبور. يتصبب العرق من كل ذرة بجسدي مع حركاتها الخليعة، تتدافع رجولتي فينتفخ البنطلون لأعلى، شارفتُ على نسيان هذا الأمر. لا أعرف ماذا يحدث وأنا مع سبيلة، شعور مهين من الارتخاء، كأني أسبح في ترعة من المش الثقيل نَتِن الرائحة، قُوى خفية تربطني، هو عامر ورث شغل العفاريت عن التهامي، كل البلد تعرف عزيز جده وزواجه من بنات الجان، هي التي ساعدته في إنجاب التهامي من صلّوحة بعد عمر طويل من العقم. ماذا تفعل ابنة القحبة تلك؟ تقبّل الجندي عيني عينك. لا تحب سبيلة التقبيل، تشيح بوجهها عنّي، تقول إن لفمي رائحة كريهة.

هل تمنحه شفاهها الآن؟

لو أعرف كيف أهرب من هنا، أضبطهما وأجرّسهما في البلد قبل أن أقتلهما، لكن ستقتلني الصحراء قبل أن أصل، إن لم تفعل الصحراء سيفعل القادة، سيرون الأمر هروبًا من شرف الجندية، وفي الحقيقة أهرب إلى شرفي، صحيح أنا من فضضت غشاء بكارتها بيدي، لكن هذا سيجعل مهمته أسهل، ليس هناك دليل ضدهما الآن، هل كنت أفتح له الطريق ليعبر؟

تخلع ملابسها قطعة قطعة أمامنا، يصحبها الجندي إلى حيث لا نرى..

ماذا سيحدث لو خلعتُ الخوذة؟ صداع يضرب جسدي بالكامل، سخونة لن تهدأ إلا بتدفق مياه الحياة، أثر البلل الضئيل على حِجر البنطلون ستجففه الشمس في دقائق، أشعر بثقل البندقية على كتفي، مرت نسمة لطيفة، خدرٌ يسري بجسدي، أقاوم لأبقى واقفًا.

ليل العنبر مخيف، النوم عزيز، كل شيء سيطبق علي، العنابر ليست أسوأ حالًا من البيوت، أضع جنبي، أجبر عقلي على الصمت وأنام.

***

«اقتل عامر».

كان الأمرُ واضحًا، أيقظني من النوم، تكرر الصوت، من هناك عند آخر الطرقة حيث نقضي حوائجنا، قمت أتتبع الصوت.

«اقتل عامر التهامي».

صوتٌ خشنٌ نافذ لا يُرد، ترسخ داخلي كوحي مُنزَّل، يطيب لي تنفيذه بلا جدل.

«اقتله يا شاهين».

أسمع طلقات نارية متتابعة من الخارج، مدفع هاون مقذوف، يبدو أن قنّاص الكتيبة (عم نور) كما نطلق عليه اصطاد كلبًا إسرائيليًّا في المقابل، هو يعرف عدوه، يفصله عنه قنال وتمويه وطلقات واحتمالات، يحتاج أيامًا يرقد ساكنًا يقيس أطوالًا يحدد اتجاهاتٍ، يحسب بدقة قبل أن يرمي رميته ويهرب إلى ملجئه. أنا أيضًا أعرف عدوّي، لكنه إلى جواري، لا يحتاج إلا إلى مسافة مد يد وأصل إليه، أنا لا أقل بطولة عن (عم نور)، مثله سأختبئ إلى أن أنفّذ الأمر.

صحيح أن أمي وأبي وشقيقاتي بالدار، وأوصيت جاري مراقبة خطوات سبيلة، الأمر لا يسلم ليلًا، تُدخله من الباب الخلفي في الشارع الجانبي للدار، لن يلحظ أحدٌ همسَ خطواتهما في الدار صاعدين لأعلى، عندما تريد المرأة لا شيء يمنعها. الضجيج بعقلي أعنف من النيران بالخارج، سمعت إشارة الدفاع الجوي، واضح أن طلقة عم نور أزعجتهم هذه المرة كثيرًا ليقوموا بغارةٍ جوية، علينا الدخول في الخنادق، الضرب من كل اتجاه في الخندق يرتفع الدخان مشوِّشًا فلا يتم تحديد مكان سلاح الدفاع

الجويّ، ارتفاع رأسي عن مستوى الخندق قد يكلفني حياتي، الرؤية قد تقصف عمري، الانحناء نجاة، فقط عليّ أن أرفع رأسي في الوقت المناسب.

عاد عامر من الإجازة، لا أعرف لمَ يحبه زملاؤه والقادة، أيحسب نفسه وليًّا من أولياء الله يمكنه السير على الماء؟ كنا سمعنا أخبارًا من كتيبة مجاورة عن عسكري مصري ألقى بنفسه في القنال وسلم نفسه للعدو وعمل معهم جاسوسًا، الأمر غاية في الوضوح، ومن واجبي أن أبلّغ القادة بما حدث، ليعدموه دون محاكمة إن أرادوا ويخلصوني من خياناته؛ لكنه كالعادة يخرج منها بفضل ألاعيبه.

المخاويّ: تسقط قنبلة ثقيلة نحو ألف رطل على مسافة تسعة أمتار منه، الشظية منها -ذاك اللوح المعدني الثقيل الملتهب شديد السرعة- تشطر الجندي الواقف على بعد مئتي متر نصفين، ويجري الزملاء يفتّشون عن أثر عامر ليجدوه تحت الرمال حيًّا بلا خدش.

أتباع جدّه ينجّونه من الموت، كل جندي يعرف مخبأه عند الضرب بالمقذوفات اتقاء الشظايا، وفي ليلة تبادل هو وجندي أماكنهم في الحفر البرميلية، وبعد انتهاء الغارة يتمم القائد على الكتيبة، وجدَنا بالكامل أحياء ما عدا المسكين الذي أخذ مكان عامر، تسللتُ إليه في الحفرة شظية قتلته في الحال، الأمر محسوم دائمًا لصالحه.

ليس هنالك مصادفات.

عندما يغيب القمر بالكامل يكثر مرور الجنود إلى الجانب الآخر في مهمات استطلاعية خلف خطوط العدو. كان عامر معي في سرية استطلاعٍ واحدة، نعبر في قوارب مطاطية مستخدمين أحبالًا يشدها الضفادع البشرية بين الجانبين. وقرب الضفة الشرقية بنحو عشرين مترًا نسبح مرتدين سترات النجاة. ليالٍ شديدة الظلمة؛ لكنه يرى بوضوح، يحفظ الطرق أكثر من خطوط باطن يديه، يتبعه قائد السرية. هو سبب ربكتي في تلك الليلة، نظرته المُحذِّرة نحوي -رغم دكنة الظلام- وصلتني، أخطأتُ خطوتي، تعثرت في مركبة أطلقت صافرة إنذار دوّت في الظلام، تسّحبت السرية حسب خطة تراجع موضوعة انمحت وقتها من ذاكرتي تمامًا، فاجئتني شموس مبهرة في عتمة الليل، اختبأت بين المركبات كنت قاب قوسين من الأسر، لمحت عامر؛ أشار لي أن أتبعه في السكون والحركة، وفي نصف دقيقة وصلنا إلى باقي السرية لم يكن ينقصهم سواي. يدّبر المكيدة ويظهر أمامهم البطل ويطوقني بالجميل!

كمن رأى عفريتا انتفضت سبيلة عندما رأتني عائدا، هل تتوقع رجوعي محمولًا! تتحاشى مواجهتي، لا تنظر إلى عيني مباشرة، أتشعر بالذنب؟ لم تتبعني عندما صعدتُ إلى غرفتي، ناديتها؛ لحقت بي مسرعة.

اهدأ يا شاهين، لن تكشفهما بهذه الطريقة، يجب أن تطمئنهما من ناحيتك، تنصب لهما فخًّا يدخلانه صاغرين، وقتها فقط تستطيع أن تحكم قبضتك عليهما، تسحقهما سحقًا.

«كنت قد طلبت من عامر أن يمرَّ عليكم ليرى طلباتكم..».

«لم يأتِ».

مخادعة، فهمَت اللعبة. تذكرتُ البنت على الجبهة، هاجت كل قواي الخفية، اقتحمت سبيلة لأول مرة، رفعت علمي على أرضها، أول معركة أكسبها من عامر، حروبه معي من قبل ميلادنا، كنت أخاف أبي بسبب أبيه، يتلمز الصبية عليّ يسألونني (هل الغراب أكل عين أبيك؟) التهامي هو الغراب الذي فقأ لأبي عينه، وينادونني شاهين الأعور، بسببه أكره أبي، أتجنب النظر في وجهه، لكل الأولاد آباء صحيحو الأعين عدا أنا، أتمنى لو أدب أصابعي في عيني أبيه، لكن عامر عينا أبيه وأطرافه الأربعة، لن تحميه هذه المرة عفاريت أبيه التي تركها على الجبهة لتحمي ابنه كما حمته وعاد حيًّا من الأسر.

هل تعرفين يا سبيلة كم مرّة قتلتُ عامر هنا في رأسي؟ كم مرة شددت أجزاء بندقيتي، وكان هو الهدف، أراه في الخنادق، الحصون، الدبابات، حتى وجهه المثلث يتركب أمامي ليصبح مثلثين متداخلي

القاعدة كنجمة الإسرائيليين، أتخفى وراء الجدران، أنتظر خروجه، أدقق النظر جيدًا لأول وهلة أراه هو، ولا أجده. كل شيء يصرخ فيّ كي أنفذ، قذائف الطائرات، نيران المدفعية، مدافع الهاون، زمجرة الدبابات، حتى همسات الرمال وقت السكون تأمرني أن أقتل عامر.

كل شيءٍ وضح يا سبيلة، فضحك جلدك، البثور المنتشرة بباطن الفخذ عندك، أجدها عنده في ظاهر الفخذ -قال طبيب الوحدة إنها عدوى- التفت ساقاكِ حوله إذن، كل الأدلة واضحة يستحق الموت، وتستحقين السحق تحت نعل البيادة، لكن الصبر. قريبًا آتيك بخبر حبيب القلب، سأنفذ الأمر.

ترسم الرمال صورته حولي من كل اتجاه، تمزجه مع سبيلة يتحسس ظهرها، يجتذبها بقوة ولا تقاوم، تطوق رقبته بأصابعها وتجذبه، ينحني للجيد البضة، تتحرك الرياح أكثر، تتداخل الرمال، لا أعرف يد سبيلة من قدم عامر، تلمع حبات الرمال في الشمس، تتحرك نحوي وتضربني في عيني حتى لا أكمل المشهد.

لأيام تلفظنا الصحراء، أرى أجنحة بيضاء مرفرفة هناك في السماء، الملائكة تحارب معنا، تحمي خطواتنا تسدد رمينا، انقطع عنّا الإمداد أيامًا، أحافظ على قطرات المياه كما أمرتُ سبيلة أن تفعل، فقط أبلل شفاهي عند الحاجة، العطش يدق مسامير في حلقي، العرق يتصبب، نويت استئناف الصيام الأيام التالية. هل تسقط المياه على رأس عامر وحده؟ كلما رأيته أجده يرفع الزجاجة على فمه ويشرب، من أين له كل هذا الكم.

طال الحصار، تتعالى صيحاتُ العدو بالاستسلام، يتحكم الجوع والعطش بنا، سبيلة هناك محاصرة تنتظر، هل الاستسلام الحل كما نسمع في مكبرات الصوت ليل نهار منهم؟ يتهامس الجنود بالوضع غير المفهوم، قدم هنا وقدم هناك، ينقطع الاتصال بالقادة، نحن هنا مبتورون، منسيون، يتهامس البعض بالاستسلام، الذخيرة والماء والطعام على وشك الانتهاء. توسوس لنا مكبرات الصوت بالاستسلام تضغط على وتر قرب انتهاء الإمدادات. لا يكف عامر عن اللعب بدور البطولة المزيفة، يحمل «جركن» مياه من القليل المتبقي ويقف أمامهم ويرميه، يوهمهم أن المياه متوفرة هنا، مجددًا يرونه بطلًا بأفعاله الطائشة تلك وهو يقرّبنا من الموت، أي حماقة يرتكبها ابن الأبالسة. ليكن ذلك القسط من المياه من نصيبه وحده، نهايته كتبها بنفسه.

قبيل الفجر نسمع دوي الطائرات المستطلعة بالأعلى..

اقتل عامر..

الصوت يتصاعد من جديد.

اقتل عامر..

صوِّب سلاحك نحوه.

تراشق بين الجبهتين المحاصرتين، يتصاعد جنون المعركة، ألمحه هناك، يفرد صدره لا يهمه الموت، لا يعرف أن الرصاصة ستصيبه من الخلف!

اقتله..

كنت أحرك جبلًا من مكانه وأنا أضغط، ألمح سقوطه، لم يلتفت، خفت، كهرباء أصابت القلب، أرى عيني عامر من الخلف تخترقانني، تعرف أنها رصاصتي، تتشفى في فزعي، خرجت من الحفرة، جريت بأقصى سرعة، لا أعرف إلى أين، يحملني الرعب على جناحيه، يطيرني بقسوة، لم أعرف بأي وقت كنت، بأي مكان، لا دليل، لا عدو لا حليف، تخمد قواي أسقط، أرى الشمس ضعيفة لا أميز إن كانت تشرق أم تغرب.

٢١

طلب صداقة، منى جمال، هي: صورتها الشخصية وخلفها بحر، الصفحة للعامة، نفس نوعية منشوراتها القديمة: مقتبسات من الكتب وبعض الشعر، ثم صورة لصفحة من جريدة فوقها عبارة قصيدتي المنشورة بجريدة أخبار الأدب..

أنا هنا يا محمد، لا أقاوم وحدتي، لأول مرة أجد لها معنى، أستيقظ مبكرًا جدًّا، أتمشى إلى أبعد فرن عيش في المدينة، لا زحام في الطوابير، أحضر ما يكفي يومي من الأرغفة الطازجة، أعرج إلى محل الفول والطعمية، كل شيءٍ هنا له حضورٌ كثيرًا ما بحثت عنه، لتسع سنوات يا محمد وأنا أبحث.

تعرف: مزّقت كل ما كتبت قبل ذلك، كل الشِّعر القديم، صار لا يشبهني، عندما أعدتُ قراءته وجدته ذليلًا مقيدًا مسجونًا في بحورٍ وتفعيلاتٍ طالما أجبرت نفسي على الالتزام بها. الآن أكتب قصيدةً حرّة وأتبعها؛ أكسر كل القواعد في الحياة والكتابة أيضًا، اصطحبت معي كل كتبي وبعض قطع الأثاث الضرورية، وتركت لهم أشباحهم.

تعرف أني اشتريتُ درّاجة، ما زلت أتعثر في ركوبها لكني أحاول أتعلّم في الصباح الباكر على الأرصفة الخالية، أدوّن مشاهداتي، أغلق الفيس بوك طويلًا، أذهب للمدرسة، القليل من الطالبات والكثير من العمل، سيحببن الشعر مثلي.

أعيش لحظتي يا محمد، لا ألتفت إلى الوراء، أفكر في أثر الشمس ولا أنظر إلى منتصفها كما تفعل أنت فلا تقوى على إطالة النظر، وتتعثر رؤيتك بعد أن تنقل عينيك عنها أو تجبرك على إغماض عينيك عن كل جميل. يوميًّا أشرب المياه أمام المرآة وأرى مرورها من رقبتي!

الفهرس

1. إهداء
2. ١
3. ٢
4. ٣
5. ٤
6. ٥
7. ٦
8. ٧
9. ٨
10. ٩
11. ١٠
12. ١١
13. ١٢
14. ١٣
15. ١٤
16. ١٥
17. ١٦
18. ١٧
19. ١٨
20. ١٩
21. ٢٠
22. ٢١